أحاديثُ امرأة لا تُشْبهنى

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشروالتوزيع

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الثانية
الكتاب : أحاديثُ امرأة لا تُشْبهنى
المؤلف : نـدى إمام
تصنيف الكتاب : رواية
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٥٨٤٣ / ٢٠١٦
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 259 - 5

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رواية

أحاديثُ امرأة لا تُشْبهنى

الحاصلة على المركز الثالث فى مسابقة نادى القصة

ندى إمام

إهداء

"إليها"
حيث تكون

شروقك جميل يا سيد الأبدية ،
أنت مشع وجميل وقوى
حبك عظيم وكبير
أشعتك تُظهر كل ما خلقتْ
سطحك يضىء معطياً الحياة للقلوب
أنت تملأ الأرض بحبك
أيها الإله المعبود
الذى صنع نفسه بنفسه
الذى صنع كل أرض وخلق ما عليها
ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها
أنت الإله الأحد لا شريك لك .

إخناتون

كتاب «قصة الأديان»

(١)

حديث الذكريات

غادة الطفلة ذات الست سنوات، الريفية المولد والتى تجلس هادئة بجانبى فى أول مقعد دراسى لنا، صاحبة الوجه المشوب بالحمرة والشعر الأسود الذى يتدلى فى جديلة تصل لمنتصف ظهرها، لم أختر الجلوس بجانبها ولكنه كان اختيار مدرسة الفصل حيث وجدتنا متقاربتين طولا وحجما .

لطالما كانت الضفائر تثير غيرتى حيث لم يكن شعرى ينمو سريعا ولا بكثافة كشعر غيرى من الرفيقات لذا كانت ضفيرة غادة تشد بصرى دائما فأنظر لها بإعجاب وغيرة وأنا أسير خلفها أو أعبث بها أثناء جلوسى بجانبها فى الفصل فتنظر غادة لى نظرة حاسمة كى اتوقف عن العبث بضفيرتها فأضحك قائلة : أتمنى أن يكون لدى واحدة مثلها .

سنوات ونحن نجلس متجاورتين متنقلتين معا من سنة دراسية لأخرى كبرنا ونمت فينا كل الأشياء بدءا من نهدينا حتى مقاسات أحذيتنا واستدارات أجسادنا . واستطالت أظافرنا ورموشنا لنبدو أكثر جمالا وفتنة . لم يفصل شيئ

بينى وبين غادة سوى مجموع الثانوية العامة الذى فرقنا إلى جامعتين مختلفتين، أى عذاب من دونك يا رفيقتى وأنا أخطو أولى خطواتى للجامعة وحيدة . وما كل هؤلاء الفتيات ؟

إنهن جميلات يا غادة هل تصدقين إنهن جميلات أكثر منا وشعورهن صفراء وحمراء وسوداء وأحيانا يتخللها ألوان أخرى و ترتدين ملابس قصيرة جدا .

من يصدق أننى أجلس الآن بجوار شاب لطيف جدا ووسيم ولكنه لا ينظر لى، أنا التى تخاطبه دائما وأضحك باستمرار حين أحادثه وكأننى بلهاء كم كنت بحاجة لك الآن يا غادة ! ترى ماذا تفعلين ؟ عرفت من حديثك الأخير معى بالتليفون أنك كنت عند صديقة لك بالجامعة تذاكران معاً .

هل استطعت بهذه السرعة أن تجدى صديقة غيرى؟ لماذا إذن أنا للآن وحيدة ؟ أريد أن أراك لأحدثك عن أشياء كثيرة حدثت لى خلال تلك الفترة، سأحدثك عن أول دقة حب فى قلبى لقد أحببت !هل تتخيلين هذا، فوفو تحب !

تنظر لى غادة بعينين مشدوهتين، عيناك يا غادة أكثر شىء معبر فيك، لطالما كانتا ساحرتين، ذلك السواد الداكن الذى يملأ بؤبؤهما، والرموش الطويلة الكثيفة، وحاجباك الثقيلان القابلان للتشكيل وفق كل أشكال الموضة، على عكس حاجبىّ الخفيفين اللذين لا يناسبهما سوى رسم

تقليدى واحد . أنا الأحلى نعم ولكن منذ متى كان الجمال مقياسا للأنوثة ؟ الحديث عمَّن أحب كان يجعل غادة تعبر لى بإيماءات عديدة بوجهها وعينيها ! بعضها مستنكِرا والأخر ساخرا مما جعلنى أشعر بالإهانة فأسألها لماذا لا تعطين حديثى أهمية وأنت صديقتى الوحيدة التى يجب أن تنصحنى ؟ تجيب غادة بسخرية أكثر ..

لأنك تحبين شخصا لا يحبك ولا يريد حتى أن يحبك.. هو يتهرب دائما من الحديث معك ولكنك أنت من تطاردينه، فى الحب عليك ألا تختارى، بل دعى الأقدار هى التى تختار لك .

و يعاندنى القدر مرة ثانية فيباعد بينى وبين غادة بزواجها فى السنة الثانية من الجامعة بطبيب يسافر بها إلى بلد عربى حيث نفترق لوقت لا أعلم مداه .

★★★

(٢)

حديث البحر

كانت الأيام التى نقضيها أمام البحر ماهى إلا أوقات تمر من الزمن وننـدم عليها فى داخلنا، عشرة أيام صيفية نسقطها من حسابات عمرنا بل ونعتبرها أكثر الأيام ضياعا رغم ترتيبنا المسبق لها حيث نكون فى مكان واحد يجمعنا وأبناءنا، ولكن فى زاويا أنفسنا كانت تقبع الحسرة على عدم وجود زوجينا معنا .

كان المصيف بالنسبة لى ولغادة عادة سنوية مستهلكة جدا، لا تغني ولا تسمن من جوع للحرية والانطلاق اللذيْن كانا يمزقان بعنف روحينا . بدأت تلك العادة منذ تجاورنا في السكن بعد زواجنا حين بحثت غادة عني عند عودتها لتستقر فى مصر وعرفتْ من أمي رقم تليفوني فقامت بالاتصال بي وتقابلنا في منزلي، فأعجبت بتلك المنطقة الجديدة التي بها شقتي والتي كانت تناسب إمكاناتها المادية هى وزوجها فاستقرت غادة بالشقة المقابلة لى وتصادق أيضا زوجها وزوجي . وأحسست أن العالم اكتمل بوجود غادة بقربي .

بالرغم من عادة زوجينا المملة والتقليدية في أسلوب التصييف بل وفي الحياة كلها والتى كانت لا تسعدنا أيضاً إلا أننا كنا نتمنى دائما وجودهما معنا ومصاحباتهما لنا، كان العمل أو ادعاؤه هو ما جعلهما يقرران كل عام التخلص منا والتنصل من المسئولية لمدة أيام بحجة أننا لن نشعر بالوحدة لوجودنا كصحبة معا نحن وأولادنا .

تخرجني غادة من الماء بندائها المتواصل، فأخرج ملقية عليها بكرات الرمل المبللة مدعية السرور وعلى وجهي ابتسامة بلهاء مصطنعة لإقناعها أنني بالفعل استمتعت بنزول البحر .

إيــهِ يــا عاشــقة الليــلِ ووادِيــهِ الأغــنِّ
هــــوذا الليـلُ صَـدَى وحـيٍ ورؤيـا مُتَمنِّ
تَضْحـكُ الدُنْيـا وما أنتِ سـوى آهـةِ حُزْنِ
فخــُذي العودَ عن العُشْبِ وضُمِّيهِ وغنّــي
وصِفي ما في المسـاءِ الحُلْوِ من سِـحْر وفــنِّ

«نازك الملائكة»

ديوان قراراة الموجة

من كراسة غادة

(٣)

حديث الليل

الليل يمتلىء شغفا وشوقا، والوحدة بقسوتها تشعل النار فوق خرائط أجسادنا ونحن ننام على سرر متقابلة لا نملك حلا سوى دموع تتساقط فوق وسائدنا وبالنهار نعقد مقاعد السمع والبوح .

لم تكن غادة كبيرة السن بل كانت؛ و كنتُ؛ أو كنا معاً قد قطعنا ستين عاما من العمر تقاسمناها بالتساوي .. وبالرغم من ذلك، لم يكن وجهي بإشراقة وجهها .. كما أنني لم أكن أمتلك أية فلسفة أو حتى موهبة ما .

أسأل غادة في نبرة طفولية لا تتناسب وسني المفترض به النضوج :

— كيف سنقضي الليل يا دودو ؟

مستلقيةً كالأميرات فوق أريكتها المفضلة؛ تجيبني وهى تلقي في شموخ بالريموت كنترول من يدها ليستقر أمامها فوق الطاولة :

— أمام التليفزيون .

– أنـا أنـام أمـام التليفزيـون يـا دودو! تمامـا كمـا كانـت جدتـى تفعـل .

إذن نذهب إلى أى كافيه ونسهر هناك قليلا .

– نذهب يا دودو، فأنا أتوق بشدة إلى دخان الشيشة التفاحة .

– تعالى نشرب تفاحة .

– لا أسـتطيع، أنـا لا أمتـك الشـجاعة الكافيـة يـا دودو للجلـوس أمـام النـاس وفي يـدى شيشـة، أو أن أخـرج الدخـان مـن فمـي وأنفـي مثلمـا تفعلـين ! أنـا أكتفـي بشـم رائحـة الدخـان فقـط .

– دخـان الشيشـة، أهـذا أقصـى مـا تتـوق إليـهِ نفسـك ؟! كـم أنـتِ بسـيطة

– فعـلا يـا دودو أنـا بسـيطة وضعيفـة لدرجـة أكره بها نفسـى، فالبسـاطة والضعـف يجعـلان مـني كائنـاً في حالـة استسـلام طـوال الوقـت للريـح فتفعـل بـه ماتشـاء، إن أجمل شـىء فى صداقتنـا يـا دودو هـو اطمئنانـى إلى حـد كبـير علـى نفسـي لوجـودك معـي لأنـك علـى العكـس مـني، لديـك قـدرة كبيرة تسـتطيعين بهـا التغلـب علـى الريـح، واسـتعادة إحساسـك بالاتجـاه علـى نحـو سـريع، كيـف تفعلـين هـذا يـادودو ؟

– لأنـني قبـل أن أفتـح أشـرعتى للريـح، أكـون قـد قـررت علـى أيـة موانـىء سـوف أرسـو بسـفينتى، وقبـل أن أبحـر

أحـدد وجهـتي، أنـا أرفـض التخبـط والضعـف وأحـب القـوة والسـيطرة . ألا تعرفـين يـا فوفـو أن المـرأة الضعيفـة هـى رمـز للأمـة المظلومـة .

— المهـم، فلنعـد إلى الشيشـة أو النرجيلـة كمـا كانـو يطلقـون عليهـا قديمـا أتعرفـين أن النراجيـل كانـت يومـا مـا شـأناً مـن شـئون النسـاء، لـذا غالبـا ماتجديـن في الصـور القديمـة للمشـرق العربـي النسـاء والجـواري جالسـات وممسـكات بالنراجيـل يدخنّهـا في لـذة وبسـاطة .

— ربمـا يـا دودو بسـبب أنهـن كـن يقضـين وقتـا طويـلا في الحرملـك، وكانـت النراجيـل هـى المتنفـس الوحيـد ووسـيلة للتفكـير والتأمـل، و كانـت أيضـا إحـدى لـوازم السـمر .

— جائـز يـا فوفـو.. فأنـا حـين أدخـن الشيشـة أكـون أكثـر ثقـة وتحـدٍّ؛ لأنهـا في الأصـل كانـت لنـا، لكـن الرجـل الشـرقي المحـب بطبعـه للاسـتحواذ قـرر أن يحـرم النسـاء مـن هـذه العـادة البسـيطة فقـام بجعـل هـذا النشـاط النسـائي البدائـي جـدا نشـاطا ذكوريـا .

بالفعـل يـا دودو وضـع غريـب وأفـكار اجتماعيـة أكثـر غرابـه! فأنـا أشـعر بالملـل .. أشـعر أننـي في متاهـة .. علميـني يـا دودو كيـف أصنـع خريطـتي حتـى لا أضـل طريقـي ؟ وكيـف أخلـق عالمـي وذاتـي وكيـف استكشـفهما ..

— لا يافوفو.. ليس الأمر ببالغ الأهمية كما تتصورين، فإن أعظم لحظات السعادة هى اللحظات التى تستطيعين فيها نسيان العالم وتنفصلين عن ذاتك .

— الله الله يا دودو ! ما كل هذه العظمة ! زيديني وكرري ..

— لا لن أفعل، إنني الآن شديدة التوق للعودة إلى عالمي المتعب المضني أريد أن أدخن الشيشة بطعم التفاح، وأن أنفخ فى وجهك الدخان .

آه يارب، فلتضم أطراف معطفك بشدة حولي
أعرف أنني الباقية فى الكرة الزجاجية ،
وعندما يفرغ الإنسان الأخير من العالم ،
لن تتخلى عني عنايتك الكلية
وستضاء من حولي كرةُ أرضية جديدة .

«إلزه لاسكر شولر
شاعرة ألمانية
من كراسة غادة

(٤)

حديث العالم

رغم نزاع غادة الدائم مع العالم، وتمردها وتحديها لكل مشكلاته وصعابه، ورغم ما يقابلها من صدام وقلق وتشرذم، فلا شيء يفوت غادة أن تغنم منه! بدءا من عالم الجمال، وموضة الأكسسوارات والملابس، ودروس تعلم اللغات وجلسات السحر والشعوذة، وحتى أسعار الدولار واليورو، وانتهاءاً بعالم الأسهم والعقارات وأسعار الذهب...

كان لها اهتماماتها، وحديثها، ومشترياتها. فلا شيء تتركه دون أن تقتحمه وتثبت فيه براعة .

أما عالمي فلم يكن سوى زوجي وابناى وقططي والمحال والإعلانات والأسوار والميادين والكلاب الضالة بالشوارع، ونساء أحيانا يكن طيبات وأحيانا شريرات، ورجال أراهم كمخلوقات توجب الحذر .

عالم عادى يحيا به كل البسطاء الذين لا يملكون أية رؤية او طموحات سوى مجرد العيش .

أما العالم الأكثر حياة وروعة فهو يتجاهلني تماما بل ويثير حنقي حين يمر بي متكبرا فيلفحني بحرارته الشديدة وسخافاته، ثم أراه ينسل بعيدا عني آخذا كل الأشياء الجيدة معه ليعطيها لنساء غيري أقل جمالا وذكاءْ

لا تضحكي يا دودو بالتأكيد هذا ما يحدث، وإلا ما معنى أن كل الأشياء الجميلة موجودة ولا أراها ؟ ولماذا يغرق العالم عندي فى الملل والضجر والحيرة وسأم الساعات ؟

كم مر بي من العمر وأنا بانتظار أن أرى العالم أمامى جميلا و مكتملا شكلا ومضمونا ؟ كم مر من الوقت وأنا بانتظار أن يأتي العالم لي بهدية تمنحني السعادة والبهجة.. ولم يفعل حتى الآن .

إنه عالم يرفضني و يراوغني دائما بل ويعذبني كثيرا، إنه يتعامل معي وكأننا في لعبة من ألعاب الأطفال السخفاء، فيقول لي أنظري أنا لدى كل المباهج والأمنيات التى تريدينها، كل الحب، كل الجمال والمال، أنا هنا بجوارك تماما أيتها البلهاء، خلفك، أمامك، والتفت ببراءة الأطفال باحثة عنه حيث يقول .. فلا أراه ! ربما أرى جزءا منه ولكني لم أستطع أبدا أن أراه كاملاً أو جميلا ! لماذا يراني العالم طفلة لم أنضج بعد وعلىَّ أن أشاركه ؛ و أعيش معه في ألعابه الطفولية ؟ لماذا لا يراني كأنثى كاملة وفاتنة وقادرة على الإغواء ؟

حين سألت غادة ذات يوم عن سبب شعوري بالضياع فى هذا العالم الغامض؛ وتهيأت لقبول أسلوبها الفلسفي والذى استنكره لكني فى ذات الوقت أحبه، تململت وهى تنظر في كراستها الزرقاء التي تدون بها كلمات وأشعاراً وخواطر وتقرأ منها ما تريده أمامي فى نشوة وسعادة مستعرضة ثقافتها الأدبية أجابتني قائلة : إن العالم مظلم .. غائم الرؤية إلى حد ما، لذا علينا أن نكون أكثر توهجاً وإضاءة حتى يرانا . ربما كانت تلك الإجابة مبررا لها لتفسر لي أو للآخريات اللاتي ينتقدنها أمامها أو من خلفها، لماذا هى في حالة اهتمام دائم بمظهرها الملفت للأنظار وأسلوبها الاستعراضى في كل شىء .

آه يا دودو لو تعلمين حال العالم معي، يبدو أنه بالنسبة لي أصبح ضعيف البصر جدا، بل وأصبح كهلا مصابا بالزهايمر ناسياً اسمي وشكلي ولماذا هو هنا من الأساس! بعد فترة صمت قصيرة ترد غادة قائلة : أتعرفين لماذا العالم معك غير العالم معي ؟ لأنك بالتأكيد فقدت اهتمامك به، العالم مذكر يا فوفو، بمعنى أن عنده نفس الشهوات الذكورية المعتادة كشهوة الحب، و المال والجمال وعشق المفاتن .

تتلوى غادة فى جلستها كحية مدربة على الغواية وتقول بغنج سأضرب لك مثالا يا فوفو ..

أنت حين تفقدين اهتمامك بجمالك وفتنتك أمام زوجك؛ كحالك الآن؛ سيفقد هو أيضاً اهتمامه بك وسيهملك، فما بالك بالعالم هاهاها.

أرد بسخرية .. ياسلام، ما كل هذا الجمال والعظمة يا دودو ؟ قولي المزيد يا مفكرة العصر والأوان .

تصمت غادة قليلاً وتتخذ شكلا جديدا في جلستها وتستعد لإلقاء خطبتها علىً، فهذه هى أحب الفرص إلى قلبها، حين تقوم باستعراض أفكارها أمامي وأنظر إليها بكل إصغاء واهتمام وإعجاب حيث تقول : يا عزيزتي فوفو المرأة التى تهمل مظهرها وعقلها ورغباتها وتنعدم رؤيتها لأهدافها بالتأكيد ستفقد الآمال والطموحات، وللعودة مرة أخرى للعالم، عليها أن تستعيد كل تلك الأشياء والمعانى المفقودة، يجب أن تكوني في مستوى العالم، ذلك القادر الجريء يجب أن تكون لديك نفس الثقة والجرأة لتتحديه، فلكى نرى العالم ويرانا يجب أن نفتح نوافذنا على مصراعيها نهارا؛ وأن نضيء له مصابيحنا فى الليل، وأن نظل فى حالة يقظة حتى نراه كاملا لم يتسرب منه شيئا، ويرانا أيضا كذلك، وإلا فليرتضِ كل منا حياته كما هى ..

— الله الله يا دودو .. أشهد بأنك امرأة هذا العالم .

تكلم هامساً حين تتكلم عن الحب .

وليم شكسبير

«مسرحية» جعجعة بلا طحن

من كراسة غادة

(٥)

حديث الحب

حين عادت غادة لتستقر بمصر لم تكن هى التي تركتها قبل السفر . فغادة القديمة كانت فتاة هادئة خجولة بسيطة، أما غادة التي عادت فقد صارت امرأة متمردة، متسلطة تهوى لفت الأنظار وحب الظهور جديلتها أصبحت شعرا طويلا رائعا ينسدل على كتفيها، عيونها صارت أكثر غموضا وضحكتها أكثر جاذبية، الأساور والخواتم والسلاسل الذهبية ذات الماركات المشهورة تمرح على صدرها وتتألق في معصميها و أصابعها في روعة وجمال، كما عادت أكثر جرأة في التعامل مع الرجال، فهى تنظر في عيونهم ! ! كيف ترى غادة وجوه الرجال ؟ أنا لا أستطيع التفرس في ملامحهم بدقة أبدا، ولا استطيع حتى النظر فى عينىْ رجل، فكيف تجرؤ هى أن تقف أمام رجل وهى تلوي خصرها وتبرز نصفها الأسفل بصورة لافتة للنظر؟ من أين أتت بتلك الجرأة ؟ ماذا فعلتْ بك يا رفيقتى سنوات السفر ؟

حين تخرجت من الجامعة لم أوفق في إيجاد عمل ؛ وبعد مرور عام تزوجت وعشت حياتي كربة بيت ترعى طفلين،

وحين عادت غادة كانت هى أيضا ربة بيت وترعى طفلتين .

وقت الفراغ الذى كنا ننعم به معا جعلنا نخرج لنتسوق ونذهب لنتريض بالنوادي ونتجول بالمحال، كانت حياتنا جميلة، ولكن غادة فاجأتني ذات يوم بأنها ألتحقت بالعمل كمضيفة جوية .

وقع الخبر علىّ كصاعقة مدوية كيف فعلت غادة هذا؟ ومتى ؟ ولماذا لم تخبرني بما كانت تنتويه ؟ ربما كنت تقدمت معها للعمل، إلى هذا الحد غادة لا تحب سوى نفسها، ولا تريد حتى لصديقة عمرها أن تشاركها أى نجاح ؟!

لم أصرح بشىء من ضيقي لها.. فطالما كنت كتومة لأحزاني .. ولكني رأيتها في شكل جديد، فهى الآن تعمل وترتدي زيا جميلا وتخرج كل صباح في أبهى صورة فتركب سيارة الشركة وتسافر لكل بلاد العالم ثم تعود لتحكي لي عن كل بلد جديد قامت بزيارته، بينما أنا أجلس بالبيت انتظر دائما عودتها لتؤنس وحدتي وتطلعني على مشترياتها بعد كل رحلة، فتضع أمامى قارورات عطرها وعلب المكياج المتعددة الماركات. لكنها لم تعطني أبدا أى شىء كهدية! عرفت عندئذ أن غادة أصبح بها من الأنانية ما يجعلها لا تفرط حتى في أقل الأشياء قيمة، لكن ظل يوم الجمعة من كل أسبوع هو يوم لقائنا لنشرب قهوتنا معا. وكنت أترقبه بلهفة و شغف .

قالت غادة وهى تحتسي فنجان قهوتها في تلذذ ونشوة، ولأول مرة أشعر بأنها هادئة من داخلها ولأول مرة أيضا أشعر أنها سعيدة سعادة مطلقة ! !

— آه يا فوفو ما أجمل الحب ! فعلا الحب جميل كما قالت ليلى مراد .

— نعم الحب جميل يا غادة، ولكن للفتيات المهذبات الصغيرات كما قال الفنان الرائع استيفان روستى .

— الحب لكل الناس ولكل الأعمار يا فوفو يا صديقتي الساذجة.. والحياة بلا حب لا قيمة لها .

— ولكن الحب رفاهية انتهت بالنسبة لنا، وليس علينا الآن سوى حب أزواجنا وأبنائنا .

تتنهد غادة فى سخرية قائلة : إن حاجات الناس تتغير دائما إلا الحاجة إلى الحب، فما من متعة في هذا العالم تضاهي متعة تحول كل كيانك ومشاعرك ورغباتك وأحلامك إلى شفتين محترقتين عطشاً لقبلة تروي هذا العطش .

أزداد مع كلمات غادة استنكارا ونفورا، فأراها قبيحة، بليدة، خبيثة ثم تتحول دهشتي إلى زهو وإعجاب، فأراها امرأة حسناء متحررة .. حاذقة قوية .. مازالت قادرة على الحلم والإحساس .

إن كانت تهرب الآن
فعما قريب سوف تتبعك
إن كانت لا تقبل هدية
فسوف تُهدِي
إن كانت الآن لا تحب
فسوف تحب عما قريب
حتى ولو لم تكن تريد
تعالى الآن إلَيَ
وخلصيني من همٍ ثقيل
وكل ما يشتاق القلب إليه ويرجوه
حققيه أنت، وكوني أنت حليفتى

من أشعار «سافو»

(من كراسة غادة)

(٦)

حـديث الخيانـة

في جلسة ذات شجن بيني وبين غادة كانت تبدو فيها لأول مرة ضعيفة ومهزومة وهى مستلقية فوق الأريكة بالصالة ممسكة بخطاب من زوجها أرسله لها في عيد الحب . واستهلت حديثها بعد أن ألقت بالخطاب على الطاولة بسؤالى : هل تحبين زوجك ؟

— بالتأكيد يا دودو ..أنا أحبه رغم كونه لا يتحدث كثيرا، ولا يضحك إلا قليلا.. ولا يحب النزهات، لكنه زوجي ووالد طفليّ، وفى النهاية قدري .

تبتسم غادة بسخرية قائلة : تماما مثلما كانت رؤيتي لزوجي في البداية .

— بالتأكيد فانا وأنت تربينا على ذات الأفكار .. لكن زوجي الآن يتركني هنا ويسافر ليحيا بمفرده بلا أى قيود !

— لكنه لا ينساك وهاهو يرسل لك خطابا في عيد الحب ليبثك غرامه يا لها من رومانسية تعشقينها يا غادة .

تمتعض غادة قليلا ثم ترد بسخرية قائلة : بالفعل، إنها قمة الرومانسية حين يرسل لك زوجك في عيد الحب خطابا يوصيك بالاهتمام بالأولاد والمال والسيارة، يا فوفو يا ساذجة المشاعر إن خطاب الحب ليس له أية قيمة إن لم يحمل مشاعر صادقة حتى وإن كانت كلماته لا ترتقى لأدبيات اللغة أو الشعر، يوما ما أرسل نابليون الذي كان أسطورة الحرب والواقعية من معسكره الحربي خطاباً إلى الإمبراطورة جوزفين يقول لها فيه.. لا تستحمى سأعود حالاً ..

— هاهاها... وهل استحمت أم ظلت كما هى حتى عاد ؟

— الأمر يبدو مضحكا ولكنه قمة الرومانسية وأعنف مشاعر الحب، لذا أعتقد أنها ظلت على حالها.. فالمرأة حين تحب لا تفكر فى نفسها بل في حبيبها فقط، ولا تتردد لحظة في تنفيذ كل ما يرغبه، بلا شك كانت جوزفين واثقة تماما في القائد العظيم الذي غزا العالم وهو يردد «لا شيء اسمه المستحيل» أن لديه احساساً لا يخطيء بأن للأنف دورا رئيسيا فى الحب والجنس .

— لا تقارني زوجك بنابليون ولا أنت بجوزفين .

— المرأة هى المرأة .. والرجل هو الرجل ..لا استثناء لأية قاعدة طالما من صنع الله يا فوفو.

— تأكدي إن زوجك يحبك ولكنه لا يستطيع التعبير .. فهو قد يختلف قليلاً عن نابليون هاهاها .

- يا طيبة القلب ربما يكون قد تزوج هناك، فحين كنت أذهب إليه كل عام كنت أجد دولاب ملابسه مملوءا بالهدايا والعروض الدعائية التى يحصل عليها من خلال عمله بالمستشفى ومن شركات الأدوية ومراكز التجميل وكان يجمعها من أجلي.. الآن أذهب فأجد دولابه خاوياً .

- فاستدرك سائلة إياها : وما معنى ذلك ؟ وأين تذهب هذه الأشياء ؟

- بالتأكيد تذهب لأخرى.. يقينا هو على علاقة بامرأة أخرى يعطيها كل شيء فهناك طبيبات يسكنَّ معه في نفس العمارة، كما أن له صديقاً تافهاً وزوجته امرأة لعوب يبدو من تصرفاتها أمامي حين أسافر أنها على علاقة بزوجي ربما هى التى تجرده من كل شيء .

تبكى غادة أمامى من الاحساس بخيانة زوجها، فأواسيها قائلة : لا تكونى سيئة الظن، ربما لم يعد يحصل على أشياء كهذه الآن، كما أنه يتحمل الغربة من أجلك أنت وبناتك، من أجل تأمين حياتكن بينما يتملكني شعور داخلي بالحنق عليه، كيف له أن يخون امرأة جميلة مثل غادة ؟ وأتساءل أيخونني زوجى ؟!

تخبرني غادة في جلسة صفاء نفسي جديدة عليها أنها تعيش قصة حب، افتح عيني وأخبط على صدري واشهق باستنكار ..

— تحبين من ؟ وكيف ؟

— أحب زميلاً لى، مضيفا جويا جذاباً وغاية في الرقة والحنان ! يشعرني أنني ملكة هذا الزمان .

— ولكن بيتك يا غادة ! زوجك وبناتك ..!!

— يا عزيزتي فوفو هوني على نفسك ؛ أين زوجي هذا؟ فغيابه هو الذى دفعني للدخول في تجربة كهذه، فلو إنه معي يحتويني، لو كان بقربي أنا وابنتيه ما كنت لجأت لحب رجل غيره . إنها الوحدة والرغبة في الشعور بالدفء والاهتمام، فلا حياة بلا حب واهتمام يا فوفو .

كنت كلما دخلت بيت غادة ووجدتها في حالة النشوة تلك؛ أبدو كطفلة صغيرة بلهاء فرحة بليلة العيد أو بمناسبة سعيدة فتلهو عابثة هنا وهناك..، تسري فى كياني قشعريرة لذيذة، ففي البيت تسري رائحة الحب ! فالموسيقى الهادئة تملأه، وللموسيقى سر على ما يبدو آسرُ فهى تنتزع منا العواطف انتزاعا، وحين توجد الموسيقى يختفي كل شر فهى لغة الملائكة الطيبين .

تزداد غادة بالحب جمالا واهتماما بنفسها، وتزداد مع كل هذا الزخم العاطفي فترات ابتعادها عني، فهى إما

مشغولة بالمكالمات التليفونية مع حبيبها وإما معه بالخارج ..

★★★

سنة كاملة وغادة غارقة في سعادة الحب الذى جاءها بكل ما كانت تتمناه وأكثر، غادة العاشقة الولهانة تعطي بسخاء من مالها ووقتها لحبيبها ! فهى تهديه بأشياء ثمينة وهو يمنحها الحب والحنان الذي تفتقده .. ولأول مرة أرى على أرض الواقع وليس فى الأفلام باقات الورود الطبيعية الجميلة تملأ منزل غادة قادمة من العاشق الوسيم .

وتنتهي قصة الحب بزواج العاشق من زميلتهم المضيفة الجوية الجميلة ذات الأربعة والعشرين عاما، وتنهار غادة وتصب لعناتها عليه وعليها وتترك العمل مقدمة استقالتها .

تمر الأيام وتأتي غادة متهللة فرحاً فتقول لى ارتدِ ملابسك سآخذك في نزهة . أهرع إلى دولاب ملابسى المتواضع والذي لا يهتم زوجى بأن يثريه أبدا فى أية مناسبة، ولا بأن يراني على الأقل بشكل جميل حيث كان لا يهتم بي ولا بملبسي ولا بنزهاتي كان جل اهتمامه أن يكون مرغوبا من النساء .

كانت فرحتى بالخروج مع غادة تسيطر على كل حواسي فهى الوحيدة التى تخرجني من شرنقتي المنزلية وتحتويني بروحها المتفائلة الجريئة فقد كان الجلوس بجوارها في السيارة متعة كبيرة فزجاجات العطور مبعثرة بالعربة وتملأها بعبق جميل ،عرائس صغيرة من الفرو الجميل موضوعة على المقعد

الخلفي، تتدلى من أمام غادة قلوب حمراء معلقة بالمرآة .. تقود غادة منطلقة بنا بطريقة أنيقة فتخرج من الجراج ملوحة بيدها للحارس وكأنها نجمة سينيمائية تحيي معجبيها .

تأخذني إلى رستوران أنيق بالمهندسين التي أراها لأول مرة في حياتي ونجلس على طاولة حيث كان بانتظارها رجل لا يبدو عليه الرقى ولكن يبدو عليه الثراء . تعرفني غادة عليه بأنه صديقها المهندس «عمر» .. هو يعمل بالفعل بالمقاولات ولكني شككت من خلال حديثه في كونه مهندسا .

يطلب لنا الصديق غذاءً شهيا، لكنى لا أشعر بالرغبة في الطعام!ّ فكل ما كان يتملكني هو خوفي من أن يراني أحد الأقرباء أو أصدقاء زوجى في هذا الوضع .

تقول لي غادة أثناء عودتنا إن المهندس عمر رجل كريم وخلوق وهو الذى يقوم بالبحث لها عن مشترٍ لقطعة أرض يرغب زوجها في بيعها ببلدتهم . كنت أصدقها في كل ما تقوله فلماذا ستكذب على ؟ وتتكرر دعواتها لي معها ومع عمر كل أسبوع تقريبا، وكنت حين أبدي لها عن عدم رغبتي تتوسل لى بأن لا أتركها وحدها مع رجل وذلك حتى لا تتعرض لمتاعب فحين نكون معا يبدو الأمر عاديا لثلاثتنا لكن رجل وامرأة وحدهما سيثير الشكوك ! والأمرلا يستدعي هذا فهى تقوم بعمل وليس لأى غرض آخر.

أذهب مع غادة في كل مرة وأجلس صامتة أسمع وأرى ولا أتكلم . فماذا سأقول وليس لدى لباقة غادة وحضورها فهى التى تتكلم وتضحك وتنثنى بجسمها كلاعبة جمباز محترفة، وأعرف من غادة بعد ذلك أن المهندس عمر باع قطعة الأرض وأعطاها الثمن الذى كانت تريده وأكثر.

ينتهي تواجد المهندس عمر بانتهاء الصفقة . وبمرور الوقت تأخذني غادة مرة أخرى إلى أحد الكافيهات الفخمة لنلتقى بالصحفى الكبير الذى تعرفت عليه غادة يوما فى إحدى الرحلات، تقول لي عنه في محاولة لإقناعي بالصمت الدائم، إنه رجل خلوق يا فوفو وصديق صدوق، وأنا بحاجة له فهو سيسهل لى الحصول على قطعة أرض بالمدن الجديدة من خلال نفوذه واتصالاته، وتحصل غادة على قطعة الأرض .

تريد غادة شراء قطة لابنتها زينة، فتعود ومعها قطة جميلة وكلبة جريفون صغيرة بيضاء، هدية من صاحب المحل الطبيب البيطرى الذى كان صديقا لزوجها بالبلد العربي الذى يعمل به، ولكنه عاد إلى مصر وافتتح مستشفى وفندقا بيطريا كبيرا لعلاج واستضافة وبيع الحيوانات الأليفة .

تتكرر الصداقات حتى فوجئت بها ذات يوم تدخل شقتي لتعطيني كتابا صغيرا عليه صورتها ومكتوباً عليه «أحلام الطائر المحلق» مجموعة قصصية للأديبة غادة وممهورا بتصدير من كاتب كبير

عرفت من غادة أنه معجب بها وأنه شجعها على اكتشاف موهبتها في الكتابة .

تبهرني غادة دائما بنجاحاتها المتواصلة وطموحاتها التي لا تنتهي بينما أنا مازلت افكر في الحصول على بعض الاهتمام والحرية ومجموعة ملابس جديدة . وتكبر زينة وتكبر زاهية، ويكبر ولداى أيضا .. ونكبر أنا وغادة خمس سنوات، وتبقى الكلبة التى أطلقنا عليها اسم «بوتشى» على حالها الصغير لا تكبر.

في الخامسة والثلاثين تتغير نفسية المرأة، فهى في مرحلة اكتمال الأنوثة وفي نفس الوقت مشارف انتهائها بالدخول إلى مرحلة أربعينية غامضة .. كانت غادة تريد أن تنهل من شبابها في فترة الخمس سنوات المتبقية لها بقدر ما تستطيع، وخاصة بعد أن أحست بالمهانة من ترك حبيبها لها وزواجه من زميلتهما، و شعورها بأنها أكبر سنا منهما جعلها ترتد إلى مرحلة عمرية أصغر، فباتت ترتدي بتطلونات جينز ضيقة وبلوزات قصيرة . وتعود مرة أخرى لعمل شعرها جديلة خلف ظهرها تشبها بالفتيات الصغيرات، أما أنا فكل ما فعلته فى هذه المرحلة هو أننى بدات في تعلم القيادة كى استطيع أن أذهب لشراء متطلبات البيت وتوصيل ولدىّ لتمارينهما الصيفية، و يزداد زوجي ابتعادا عني .

★★★

جميل أن تعطى من يسـألك ما هو في حاجة إليه،

ولكن أجمل من ذلك أن تعطي من لا يسألك وأنت تعرف حاجته،

فإن من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون له فرح بسعيه إلى من يتقبل

عطـاياه، والاهتداء إليه أعظم مما بالعطاء نفسه .

«جبران خليل جبران»

كتاب «النبى»

(من كراسة غادة)

(٧)

حديث المال

صديقات زينة يجئن ويذهبن مخلفات رائحة دخان سجائر لا تخطئها الأنف، ومع ذلك تبرر أمها سلوك ابنتها بأنه سلوك مراهقات وسينتهي بعد فترة قصيرة من دخول الجامعة، ويقنعني كلام غادة . زينة تخرج مع صديقاتها إلى الأسواق والمولات للتسوق وتنفق الكثير من المال، وتشتري لصديقاتها الهدايا الغالية الثمن . وتبرر غادة تصرفها بأنها لابد وأن تكون في وسط صديقاتها نجمة بما يليق بمكانة والدها الطبيب وأمها الأديبة ..

ورغم أن غادة لم تعطني يوما هدية من بين الأشياء التى تشتريها دون حاجة ثم تلقيها بعد ذلك من حولها، إلا أنني اقتنع بكلامها، فقد كانت نصفي الآخر أو ربما كلي معا، فأنا ذائبة في خلايا غادة وأدور في مداراتها تابعة مستمتعة بهذا الوضع بل وأحبه، فأبدا لم أكن أنا، وأبداً لم تكن هى، ولم نكن اثنتين، بل كنا واحداً، لكن هذا الواحد قبل القسمة فأصبح ناقصا .. وظل على مدى

سنوات يبحث عن الكمال.. فبحث في الصداقة والحب .. ووجوه المارة وعيون الأطفال، وفي أقصى المسافات والأماكن كي يزيح خيالات الظل عن نفسه ويراها لأول مرة .. واحداً صحيحاً .

★★★

زينة الفتاة الجريئة المغرورة والمدللة تخرج وفي يدها كلبتها بوتشي وتسير مزهوة بالطريق وبالرغم من أنها لم تكن على قدر كبير من الذكاء ولا التفوق الدراسي، إلا أن غادة لا ترفض لها طلبا و قد وعدتها أن تشتري لها سيارة خاصة جديدة في حال نجاحها في الثانوية العامة بمجموع كبير، وبالفعل نجحت زينة لكن بمجموع ضعيف و تم شراء السيارة الجديدة تمهيدا لالتحاق زينة بأية جامعة .

المصيف أصبح هو الوقت الذي يجعلني أقضي وقتا طويلا بجانب غادة فهي معي نهاراً وليلا نأكل ونشرب ونتسامر، وإبناى يلعبان مع بناتها اللاتي كن يكبرنهن بأعوام ومعهم جميعا تلعب بوتشي .

كنا نسير أنا وغادة على الشاطىء في الصباح وفي الظهيرة حتى صحت يوما بذعر قائلة : أنظري يا دودو إن ظلي ليس موجودا بينما ظلك يتبعك أينما سرت، أين ظلي يا دودو ؟

تضحك غادة وتقول بثقة : أنا ظلك، هلى تريدين ظلا أجمل مني ؟ أتعجب في داخلي وأسأل نفسي هل أنا بهذه الضآلة بالنسبة لغادة ..؟ أم إنني ولدت وجيناتي قاصرة غبية ؟!

لم أكن أشعر بالغيرة تجاهها بقدر ما كنت أشعر بالحب والإعجاب فهى تعبث في داخل نفسي وتخرج مكنوناتها التى لم أعرها اهتماما ولكن دون أن ترهقني بالبحث، وبالرغم من ادعائي أنني الأقوى والأكثر سيطرة على نفسي وأفكاري، إلا أنني كنت بلا أفكار على الأطلاق ! فكانت تبث أفكارها بداخلي فتملأني وتشكلني وتصيغني من جديد مدعمة أفكاري النائمة بأفكارها اليقظة المتوقدة .

★★★

في داخل نفوسكم الخلاص
فليس بالصلاة ولا بالقرابين
ولا بعبادة الأصنام والأوثان
يمكن للمرء أن يجد الغفران
أو يصل إلى طريق الحياة الصالحة
ولكن بالعمل الطيب
يمكن أن تبلغ النرفانا

«ماها فيرا»
كتاب «قصة الأديان»

(من كراسة غادة)

(٨)

حديث الحياة

بينما كنا نشرب قهوتنا وقت صلاة الجمعة كعادتنا منذ صداقتنا، قالت غادة وهي تطوي صفحات كراستها الزرقاء بعد أن ألقت عليَّ بعض الأشعار الجميلة، ما الذي يعطي الإنسان دافعا لاستكمال حياته النمطية ؟ ما الذي يجعله ينام ويصحو، يأكل ويشرب ويقابل نفس الوجوه ثم يعود ليكرر نفس الفعلة كل يوم ولمدة شهور وسنين ؟

وما فائدة أن يحيا الإنسان حياة صالحة أو عابثة ؟ وماذا لو استمر مواظبا على الصلاح، وماذا إذا استمر يحيا حياة فاسدة ؟

— أرى يا دودو أنه كل يوم تتولد لديك العديد من الأفكار الرائعة، ولكنها محيرة في ذات الوقت ! فلماذا تفعلين هذا بنفسك يا غادة ؟ أرحمي هذا الجسد الجميل وهذا العقل المنهك بتساؤلاتك التي لا تنتهي وإلا فعليك أن تشكلي لنفسك هيئة من المستشارين لمساعدتك على الوصول للإجابات الصحيحة، وعليك باختيار أفضل الخبراء لتنفيذ ما يحتمل أن ينصحك به كل منهم .

— أرأيت ؟ هذا هو الفرق بيني وبينك ! فأنا اغتنم الفكرة بمجرد أن تأتي في خاطري، أما أنت فتنتظرين حتى يبدأ إصرارك وعزيمتك في الفتور وتضيع إرادتك، لذا تضيع منك أشياء كثيرة رائعة .

— ما الروعة في افكارك وتساؤلاتك تلك ؟ إني أراها مضنية وبلا طائل !

— بل لها طائل . فالرغبة في الفوز ليست في مثل الإعداد للفوز ! لأن كل شخص يريد أن يفوز ولكن ليس كل شخص يعرف كيف يعد نفسه للفوز .

— ارحميني يا غادة بالله عليك، أخبريني فقط ماذا أطبخ لزوجي اليوم فهو عائد من ثلاثة أيام سفر .

— ثلاثة أيام ! وهل هذه مدة ؟ إن زوجي عائد أيضا لكن بعد أربعة أشهر سفر !

— حقيقى ؟ أخيراً سيعود !

— هو يعود دائما كل أربعة أشهر، معللا ومبررا لنفسه أنها المدة الشرعية لغياب الزوج عن زوجته، يتركني سبعة عشر عاما على هذا الحال، ويدعي أنه غير مقصر في حقي طالما يأتيني كل أربعة أشهر.

— ولكني أرى أنك أكثر راحة وحرية في سفره هذا، فأنت أكثر تحررا في ملبسك ومأكلك وفي نزهاتك، في عملك و في تليفوناتك .

— وهل هذه حياة ؟ أن تكونى وحيدة بلا زوج لمدة سبعة عشر عاما هى أوج أعوام شبابك، فتقومين بتربية صغارك بدونه، وتقاومين نظرات الطامعين فيك كل يوم وحدك دون معين ! أن تنامي وحيدة فوق سريرك محتضنة السراب .

أدارت غادة في النهاية فنجان قهوتها في يدها ثم قلبته فوق الطبق الصغير وهى تستعد لطقوس قراءة الفنجان مدعية أنها تفهم في فك طلاسمه ولكنها لا تؤمن بها بل هى تفعل هذا لمجرد التسلية . وكنت أعلم أن غادة لا تفهم كل شىء ولكنها ترفض رفضا باتا أن تكون على جهل بأى شىء، فكنت أتركها تقول لي ما تقول أيضا من باب الترفيه عن نفسها ومن باب حبي لها ورغبتى فى أن أكون بجوارها دائما ثم أسألها : – أتعرفين يا غادة ؟ لطالما اعتبرت أن أبي هو سر نكبتى، فلو أنه صمت قليلا وعدت أنا لتلك المسافة من الزمن لاتخذت حياتي منعطفا آخر مختلفا تماما !

— ماذا كان سيحدث ؟

— كنت سأرفض زوجي الحالي وأتمسك بخطيبي السابق، كنت سأتمسك بطموحاتي في كلية أخرى ربما كانت معك، لكن كل شىء فعله أبي كان ضد ما أريد وكل هذا بحجة أنه يعرف مصلحتي أكثر مني ! فماذا كنت أفعل سوى أن أكبت أحلامي وطموحاتي وأدفنها حية في قلبي وأعيش كما تريد اللحظة .

— أصبت الحقيقة ! أحيانا يرتكب الآباء في حق أبنائهم ألوانا من جرائم بالغة العنف إلى حد الظلم الرهيب، إنهم يغتالون فيهم براءتهم وإنسانيتهم وكرامتهم، ماذا يحدث لو ترك الآباء لأبنائهم حرية الحياة كما يشاؤون ؟ لاشك أنهم سيصبحون أفضل حالا، أتعرفين يا فوفو أنهم يوما ما اكتشفوا قبيلة من ٢٦ فردا من العصر الحجرى تحيا منذ مئات السنين بعيدة عن العالم منعزلة في غابة مطيرة بجزيرة «مندانو» اسمها قبيلة « تاسادى « كان أهلها يتكلمون لغة غريبة ولا يعرفون الزراعة و يجمعون طعامهم من البرية – الموز ولب النخيل والدرنات والضفادع ويستخدمون الفؤوس الحجرية ويسكنون الكهوف ويحسمون مشاكلهم بالإقناع الهادئ، لم يعرفوا الفخار ولا النسيج، كانوا يعيشون بالحب ولم تحو لغتهم كلمة حرب .. كانوا رمزا للبراءة ..

— الله .. ما أجمل تلك القبيلة، ليتني عشت بينهم .

— هاهاها أصدقتِ ؟! لقد كانت خدعة كبيرة من وزير الثقافة الفلبيني أنذاك حيث وعدهم بالحماية وأمدهم بالمال مقابل أن يلعبوا هذا الدور أمام كاميرات التليفزيون. وحين اكتُشف الأمر، كان رئيس الوزراء قد هرب بالأموال التى تم جمعها كتبرعات لتلك القبيلة .

— ياله من مخادع

- نعم كانت خدعة ولكنه قام بها من أجل تشجيع السياحة في بلده وانطلت على العالم أتعرفين لماذا ؟

- لماذا يا دودو ؟

- لأن معظم الناس يبحثون عن جنة بلا أحزان أو آلام أو قيود، جنة ضاعت منهم يوما بسبب ما لهذا تجدينهم يستسلمون فرحين لكل أسطورة قد تريحهم من عناء الحياة القاسية وضغوطها المستمرة .

- أتعرفين ماذا حدث لأمي يوم أن غرق أخي «زين» بالبحر ؟ أخبرتني أختي «علا» والتي كانت تكبرني بخمس سنوات إن أمي قفزت عدة مرات من شرفة بيتنا محاولة الموت ولكنها كانت تنجو ولا يصيبها سوى الكسور التى جعلتها فيما بعد لا تستطيع السير على قدميها إلا باستخدام عصاة تستند عليها، وكانت حينذاك فى الخامسة والثلاثين من العمر أى فى مثل عمرى الآن، لكن ما رأيته أنا كان شيئا مختلفا فقد كانت أمي تستيقظ فزعة من نومها في الليل وتصرخ منادية باسم أخي ! كنت أسالها ألا تنسينه يا أمي رغم أن لديك ثلاثة ذكور غيره ؟ فتجيبني قائلة : إن حبه وحده في قلبي يعادل حبي لكم جميعا ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أثق في البحر ولا في وشوشاته الكاذبة .

– لقد أخذنا الحديث لمواضيع شتى، ولم تخبريني ماذا أطبخ اليوم ؟

– أطبخي لزوجك اليوم طعاما دسما حتى يأكل وينام .

★★★

آه يا نصف الشجاعة ؟
آه أيها الموقف العصيب،
هاهو مصباحي الصغير يوشك أن ينطفىء
وفتيله يمتص في نهم قطرات الزيت الأخيرة .
أهكذا تخمد حياتى أيضاً ؟

«انيتا فون دروسته هولسهوف»
شاعرة ألمانية

(من كراسة غادة)

(٩)

حديث الخوف

كان الوقت خريفا باردا، وبعض من رذاذ المطر ينقر زجاج نافذة الصالة في بيت غادة، بينما هى ممدة على أريكتها المفضلة ذات اللون البيج الداكن تدون أشياءً بكراستها الزرقاء وأنا ممدة على الأريكة المقابلة لها، بدا في عين غادة قطرات من الدموع واتخذت ملامحها شكل امرأة مسحورة يلفها الغموض وبدأت تحكى لي عن حبيبها المضيف الجوى الذي هجرها .. أقاطعها قائلة : نعم لقد تركك بلا مبرر مفهوم !

تجيبني غادة وهى تلقي بكراستها على الطاولة وقد تجمعت قطرات الدموع في عينيها .. تركني لأني رفضت أن أشاركه الفراش .

كان لكلمة غادة دوى شديد في صدري أصابني بالخوف والذعر.. وإذا بعرق بارد يلف وجهي وضربات قلبي تزداد سرعة .

أردفت غادة قائلة في حالة بوح أنثوية ؛ عالمنا خطر يافوفو نواجه خطره دائما وفي كل مكان، والألم رابض لنا وراء حجب السعادة . كنت أخاف دائما أن أفقد من أحبهم؛ ففقدت أخي الذي كنت أحبه، وفقدت المحبوب الذي اختزلت فيه الناس جميعا ترى ماذا سأفقد مجددا ؟ في داخل الدائرة التي تطوق هذا العام سوف تتحطم حياتي . إنني أشعر بهذا .

و انهمرت الدموع من عينىْ غادة التي رأيتها لأول مرة تبكي .

★★★

سـمعت صوتـاً هاتفـا في السـحرْ
نـدى مـن الغيـب غفـاة البـشرْ
هبـوا امـلأوا كأس المنـى قبـل أن
تمـلأ كأسَ العمـرِ كـفُ القـدرْ

رباعيات «عمر الخيام»

(من كراسة غادة)

(١٠)

حديث المرض

في الصباح كانت تخرج زينة مع بوتشي وولدى إلى البحر بينما نلحق بهم بعد أن نصحو من النوم وبعد إعداد الطعام .

الجو صحو وجميل وهادىء كعادة القرى السياحية بالساحل الشمالى وصوت الصغار يزيده جمالا، ونباح بوتشي يزيده ألفة وسعادة وكل شىء جميل ومتسق . الأصوات تعلو ونباح بوتشي يتضخم ويتحشرج ويتحول الهدوء إلى صراخ ووصلت الضجة أوْجَها لنصحو على نبأ حزين قاس، فقد غرقت زينة بالبحر .

لم تدخل زينة الجامعة بسيارتها الجديدة ..!! ولم نذهب منذ ذلك اليوم إلى المصيف مرة أخرى، ولم تعد غادة تضحك، بل و لم يغمض لها جفن .

غادة التي طالما وصفتها بالقوة و صلابة الإرادة غدت كطفل ضعيف لاحول له ولا قوة واستراحت إلى الأحلام ؛ بل واستسهلت أن تطلق لخيالها العنان وغاصت في لجج

الخرافات والأوهام، واعتلت نفسها وأصبح وعيها صورة مشوهة غامضة للعالم الخارجى .

فمنذ وفاة زينة انشطرت غادة إلى نصفين : نصف طيب فى داخله يحب الناس والحياة ؛ ونصف آخر شرير حانق على كل الناس و على الحياة .

لم يكن من السهل أن تتقبل غادة هذا الحدث الجلل الذي حرمها من جزء غال منها كان يمثل لها الأمل فى الحياة ! فقد كانت تعد زينة كى تكون مضيفة جوية مثلها وكانت ترى فيها شبابها وأحلامها ؛ والمفارقة المؤسية في حادث موتها أن زينة كانت تلعب و بوتشي فى البحر، فغرقت هى بينما ظلت بوتشي على قيد الحياة !

أن أشاهد غرق زينة كان من أصعب المواقف التى مرت بحياتى فقد سمعت من غادة تفاصيل غرق أخيها بالبحر من قبل لكننى كنت أتخيل المشهد بخيال فنان .. لا صعوبة فى أن تتخيل شيئا لم تشاهده أبدا . الصعوبة هى أن تعيش هذا المشهد القاسى على أرض الواقع شيئ يختلف فى كل التفاصيل عما تخيلته من قبل، شيء محددا وليس مجرد افتراض غامض .

لم تعد غادة في دوامة هذا الحزن العاصف قادرة على خدمة ابنتها زاهية فأرسلتها إلى أختها حتى تتسلى مع ابنتىْ خالتها ولتلحق ببوتشي، فالصدمة كانت أكبر من

قـدرة غـادة علـى التحمـل خاصـة وأن زوجهـا ذهـب بعـد انقضـاء أربعـين يومـا علـى وفـاة زينـة إلى عملـه في الخـارج .

ولم تفلـح كل الجهـود التـى بذلهـا الأهـل والأصدقـاء في إفاقـة غـادة مـن صدمتهـا وإخراجهـا مـن حزنهـا المريـر، فأهملـت مظهرهـا وازداد وزنهـا، بـل وكرهـت النصيحـة والشـفقة الـتي باتـت تقابلهمـا في عيـون النـاس مـن قريـب أو بعيـد .

أوغلـت غـادة في سـراديب العزلـة فانقطعـت عـن كل مـن يعرفونهـا، لم يبـق لهـا سـواى وأختهـا عـلا الـتي تكبرهـا، وكانـت عـلا في أحيـان كثـيرة تتنصـل مـن المجـيء بحجـة انهـا ترعـى البنـات وكذلـك الكلبـة، وتـترك لـي مهمـة البقـاء بجـوار غـادة والاهتمـام بهـا.

يومـا كنـت عائـدة مـن الخـارج ودخلـت مسـرعة حيـث شـقة غـادة الـتي اعطتنـى مفتاحهـا حتـى لا أوقظهـا مـن النـوم أو أرهقهـا بالمجـيء لتفتـح لى البـاب ..

حـين دخلـت وجـدت غـادة مسـتلقية علـى أريكتهـا وعلـى الطاولـة زجاجـة كبـيرة بهـا مشـروب شـفاف اللـون . كنـت أعانـي العطـش فرفعـت الزجاجـة لأشـرب، فاجأنـي طعمهـا الـلاذع فأخفضتهـا بسـرعة وأنـا أتسـاءل مسـتنكرة، ماهـذا المشـروب يـا دودو ؟

تجيبنى غادة بضحكة ساخرة .. فودكا ..

— ماذا تعني ؟

— مشروب كحولي يا فوفو ..

— ولماذا يا دودو .. هل وصلنا لهذه الدرجة ؟

تثور غادة في وجهي وتصرخ بأن اتركها لحالها فهى حرة .. فأهدىء من روعها وأمسح بيدي على شعرها الجميل الذي أهملته بسبب الحزن وألاطفها فتهدأ ثم تقول لي : اتعرفين أن هذه الزجاجة من أجود الأنواع، لقد ابتعتها رأسا من روسيا ..

— كيف ؟

— أوصيت مضيفة كانت صديقتي أن تحضرها لى أثناء رحلتها الى روسيا

— ولماذا ؟

— لأنني أريد أن أعيش في عالم آخر ..أريد أن أشعر بالسعادة وأحلق بعيدا .

— وهل الفودكا تفعل كل هذا ؟

— نعم، وأكثر من هذا .

— أهى خمر مثلها مثل الويسكى أم لا ؟

— خمر طبعا .

– ولماذا اخترتها هى دون غيرها ؟

– لأنك لا تفهمين شيئا، لابد وأن توجهي مثل هذا السؤال الغبي .

– شكرا لذوقك ومنكم نستفيد

– الفودكا يا فوفو ليس لها لون ولا رائحة، لذا لن يتشمم الفضوليون مني رائحة خمر، وإذا وضعتها في كاس لن يدرك الناس أنها مشروب كحولي بل سيظنونها أى مشروب عادى .

– هل انتهت بك الحيلة إلى إدمان المسكرات بهذا الشكل ؟

– لا تقولي إدمان ومسكرات وكلام لا تعرفين قدره، أنا فقط أتسلى لأنسى مصيبتي.. كما أن الفودكا مشروب عِلية القوم، وكل من يفهم فى فنون المزاج والذوق ..

كنت أدخل عليها فأراها ممدة على أريكتها وزجاجة الفودكا أمامها على الطاولة و أمامها كأسان، واحدة للفودكا والأخرى وضعت بها سمكة ذهبية صغيرة أسمتها زينة .

★★★

وقد صار قلبي قابلاً كل ملة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائـف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

«محى الدين بن عربى»

(من كراسة غادة)

(١١)

حديث الموت

ماذا عساى أن أفعل وقد لعبت الخمر برأس غادة وأفقدتها صوابها وأصبحت أكثر حدة في كلامها ! كانت تنتابها نوبات اكتئابية شديدة فتبدأ في توبيخات ومشاحنات ومناقشات حول قضايا تافهة مع ابنتها الصغيرة ومع زوجها وأخواتها والجيران ومعي، وأحيانا تجتاحها رغبات جامحة مفاجئة ومفزعة ! كما كانت تتفوه معي بأشياء ليست من طبعها فالحياة أصبحت بالنسبة لها عدواً غادراً .

كنت اتسامح مع تلك الحالات تقديرا مني لحالتها العصيبة، إن من يتسامح يتحمل شيئا يسبب له الضيق فيقرر أن يترك الأمور تجرى في أعنتها إيثاراً للسلام، بيد أنه يتألم لتأذي مشاعره وإرباك عاداته .

بعد محاولات من الجميع في تهدئة تلك الخواطر وتعبئة نفسها بالاطمئنان مرة أخرى، قررت غادة أن تذهب فى زيارة لبلدتها ربما ترتاح أعصابها وتعود مرة أخرى أكثر راحة . فلم أرها ما يقرب من أسبوعين منذ أن سافرت إلى بلدتها .

أعرف أنها كانت بحاجة للسفر إلى بيت العائلة بدمنهور حين بلغ بها الحنين مبلغه لزيارة قبر والديها وقبر ابنتها، و المرورعلى بيوت أقاربها وأصدقائها الذين شهدوا معها مولد زينة وطفولتها البريئة . غير أني كنت افتقدها بعدما فقدت جلستنا الأسبوعية وأحاديثنا وشرب قهوتنا المحوجة المصنوعة على لهب السبرتاية في صينية غادة الصغيرة وكذلك نزهاتنا معا قبل أن يصيبها ما أصابها.

يوقظني جرس الباب من قيلولة الظهيرة فأهرع لفتحه خوفاً من أن يكون زوجي هو الطارق فينظر لي نظرته القاسية المعتادة التي تنهرنى على تأخري فى القدوم له، ولكني فوجئت بزوج غادة ! متى جاء من سفره ؟ ولم هذا الوجوم على وجهه ؟ وأين غادة ؟ أرحب به وقبل أن أنطق بتساؤلاتى.. يخبرنى بوفاة غادة !

الموت! أى حدث هذا ؟ غادة واهبة الأمل تنتحر بابتلاع جرعات عالية من الدواء الخاص بالاكتئاب النفسى الذي كانت تتناوله عقب وفاة زينة .

أتنتحرين يا غادة ..؟ ألم تكن هناك سبل أخرى إلى جانب هذه المسالك والدروب الأليمة تفضى إلى الموت بدلا من هذه الصورة غير الجديرة بقوتك وعنادك ؟

أتنهين حياتك بلا فلسفة خاصة بك للموت الذى كثيرا ما تحدثت عنه بحب وعناد وتحدِ ؟ هذا مالا أصدقه ولا أقبله

مـن امـرأة أحبـت المـوت وأطلقـت عليـه أسمـاء عذبـه! فالمـوت والحيـاة كانـا متسـاويين عنـدك مـن حيـث الجمـال واللـذة .

قلـتِ لى يومـاً إن إلـه المـوت قديمـا عنـد الرومـان كان يدعى» هيديـس» ابـن زحـل أخـى جوبتـير و نبتـون زوج بروسـيربين، و كان الرومـان يعتقـدون أن الإنسـان عنـد موتـه يسـافر تحـت الأرض وعليـه أن يعـبر أولاً نهـر المـوت «سـتايكس» وقـد كانـوا يدفنـون الميـت ويضعـون معـه شـيئاً مـن العملـة ؛ أسـالك لمـاذا؟ تجيبـين .. مـن أجـل دفـع أجـرة عبـور النهـر للمُعـدِّي كـى يعـود بـه عـبر النهـر مـرة أخـرى .

أنتِ من قلت لي يوما إنه إذا قدر لك الموت فإنك سـتبنين لك بيتـاً عنـد حـدود الأبـد، وإنك في كل يوم سـتهبطين على سـواحل الحيـاة لتشـاهدي صحاريهـا ..وجبالهـا .. وأنهارهـا وغاباتهـا !

وهكـذا انتهـى المطـاف بغـادة لترقـد بالقـبر جثة هامـدة بجوار ابنتهـا الحبيبـة زينـة، وتختفـي زاهيـة حيـث تلحـق بأبيهـا قى غربتـه، ولم يبـق لـي سـوى بوتشـي الـتي أحضرتهـا لـي أخـت غـادة أثنـاء تسـوية كل الأشـياء واكتفـت هـى بالاحتفـاظ بملابـس أختهـا الوحيـدة .

وأغلق البيت وانسحبت منه ضحكات غادة وشهقاتها ..

وغرق – هو أيضا – في الظلام ..

★★★

إن ألين الاشياء في العالم ،
تصدم أصلبها وتتغلب عليه .
وليس في العالم شيء
ألين ولا أضعف من الماء ،
ولكن لا شيء أقوى من الماء ،
في مغالبة كل ما هو صلب قوى

لاو - تسى
حكيم صينى

(من كراسة غادة)

(١٢)

دعوة البحر

وحدي أذهب للمصيف لأول مرة .. أهى حقيقة أن يحدث هذا ؟! وعدني زوجي باللحاق بي بعد يومين، ولداى ينامان حتى الظهيرة بينما أصحو أنا باكرا فالأمسيات انتهت برحيلك يا غادة.

الليل قاس جدا من دونك يا رفيقتى، والوحدة تملأ المكان، وتحتويني هموم ذكراك بعد أن أخلف زوجي موعده معي ولم يأت، وأقنع نفسي بأنه مشغول فعلا . بطء الليل وطوله أرهقني يا غادة وأنا مستيقظة وحدي ألوك الهم في أعماق نفسي وأجتر أحاديثنا معا وشوقي إليك يزداد فأقنع نفسي أنك معي بروحك .

في الصباح أجلس وحدي أمام البحر والماء يغريني بزرقته، اتذكر كلامك عنه وعن أكاذيبه فأبتسم .. اتذكر غرق زينة فأبكي، وأسمع البحر يدعوني إليه، يناديني بوشوشات خاصة لا أفهمها، يقنعني، يسلبني إرادتي، تعتريني مشاعر وأحاسيس جديدة لم أعهدها فىَ من قبل ! مشاعر ترغب

فـى التجربـة وفـى التمـرد، مشـاعر تشـبهك يـا غـادة ! لمـاذا أرفـض دعـوة البحـر ؟

ربمـا علـىَ الآن أن اكتشـف بنفسـي تلـك الأكاذيـب الـتي طالمـا حدثتـنـي عنهـا، لـذا يجـب أن أنـزل إلى المـاء، فقـط علـى أن أغـير مـن نظـام الدخـول إلى البحـر، فلـن أفهمـه إلا إذا اتبعـت نصيحتـك، لـذا سـأدخل إلى حضـن البحـر بالمايـوه الأحمـر ذي القطعتـين، فأدخـل ..

اتذكـر كلامـك عـن ملمـس مـاء البحـر علـى أجسـادنا ونحـن عرايـا، أدخـل، يصـل المـاء لعنقـي فأنـزع عنـى قطعتـىْ المايـوه .

مـا أجمـل الأحسـاس بالمـاء دون ملابـس تعوقنـا عـن الشـعور بلذتـه ! أضحـك وأطـوح بملابسـى فـى الهـواء ثـم أسـرع فالتقطهـا، كنـت وحـدي مـع البحـر الـذى مـا بخـل علـىّ بالاحتـواء، الآن شـعرت بمـا كنـت تتمنينـه لـي يـا صديقتـى.. إنهـا الحريـة .

غـادة يـا أفضـل الهـداة، إننـى أديـن بالتجربـة لـك، ولـولا اتباعـي إيـاك لظللـت علـى جهلـي، فلطالمـا كانـت كلماتـك شـرائعي ونظراتـك مصابيحـي .. هـا أنـا في البحـر عاريـة تمامـا إلا مـن أفـكارك التـى ارتديهـا حـول عنقـى كيواقيـت نفيسـة .. يتغلغـل فـى قلبـى صمـت مهيـب حيـث الأجـرام السـماوية مازالـت آفلـة ولا أحـد معـي .. لا أحـد يرانـي .. أو هكـذا كنـت أظـن .

بالأمسيات يا غادة يخرج ولداى إلى حيث أصدقائهما، وأبقى وحدي على طاولة الذكريات وأمامى فنجان قهوة لم يعد لها مذاق منذ فراقك . وهيهات أنسى طعم قهوتنا أو ضحكة ضحكناها معا .

أصحو من نومي على صوت صراخ ابني الصغير الذى يؤلمه جنبه بشدة، ماذا أفعل ياربي ؟ ماذا أفعل وحدي الآن ؟ وزوجي يتركنا بلا سبب واضح .

كانت أقرب مستشفى تبعد عن القرية بعض الكيلومترات فقمت بالوقوف بالطريق وأنا أحاول أن أشير إلى أى عربة قادمة قد تقوم بتوصيلنا حيث المستشفى، فتقف أمامنا سيارة بيضاء كأنها ملاك سقط من السماء فأفتح بابها مسرعة وأدخل ولدي ثم أركب بجوار السائق الذى أرى وجهه فى تلك اللحظة فقط، كان رجلا في الأربعينات من العمر وجهه ينم عن رقى وذوق وطيبة .

يخبرني الطبيب بأن ابني بحاجة إلى عملية استئصال الزائدة الدودية في الحال، اتصل بزوجي أناشده أن يسرع بالمجيء؛ و خلال ساعتين ونصف كان زوجي بجوارنا وابني يدخل غرفة العمليات

الأيام التى تبقت لي بالمصيف كانت فترة نقاهة لابني الذي تحسنت حالته بمضى الأيام بينما أنا وزوجي نقوم على خدمته، ولأول مرة أشعر أننا بالفعل أسرة مترابطة وسعيدة.

في الصباح قابلنا الرجل الذى قام بإسعافي أنا وابني بالطريق وقد جاء مهرولا إلىّ وزوجي ليطمئن على صحة ابننا وقام زوجي بشكره، وعلمنا أنه فنان تشكيلي لديه أتيليه خاص بالقاهرة، وأخبرنا أنه من أوائل من سكنوا بالقرية ودعانا لنشاهد أعماله بالشاليه الخاص به وهو مشهور بالقرية «بشاليه مازن» . لم نعترض أنا وزوجي وقد كنا في حاجة لمن يخرجنا مما نحن فيه من رتابة وسأم .

استقبلتنا زوجته مرحبة ومتسائلة بلهفة عن أخبار مريضنا، فقد كانا بلا أولاد .

كان الشاليه من الداخل كمتحف صغير ذي ديكور جذاب، فهناك العديد من اللوحات الزيتية معلقات على الحوائط، وتماثيل بالأركان، وشبابيك ذات زجاج معشق برسومات جميلة، كان بالفعل ينم عن ذوق رفيع . ولمحت في ركن ما من الشاليه شيشة بمشتملاتها ترتكن في هدوء وفن بجوار أحدى الحوائط ..فإذا بي اتذكر غادة وابتسم .

حين حضر مضيفنا كان يرتدى بنطالا أبيض وقميصا خفيفا بنفس اللون وحزاما جلديا ذا لونين أبيض في أسود وينتعل حذاءً بنفس ألوان الحزام وساعة يد بنفس اللونين.. بدا الرجل مع طول قامته غاية في الأناقة، مظهره يدل على أنه بالفعل فنان و نظر إلىً نظرة غريبة لم أعرف مغزاها ولا معناها فقد كنت حتى تلك اللحظة على براءتي .

لم أدر ما المدة التي قضيناها أنا وزوجي فى ضيافتهما فعيناه لم تفارقاني طوال الأمسية مما أثار انتباهي بأنه يهتم بي على نحو ما .

(١٣)

بقايا الذكريات

كما يتوقف المسافر من ترحاله، توقفت أمام شقة غادة التي تم بيعها واستأجرتها أسرة أخرى كمن يتوقف عند عالم هالك وعالم وليد . كانت الأشياء التي تنتمي للعالم القديم ملقاة خارجا بانتظار أن يصل من يحملها ليلقيها في القمامة، صور وقصاصات ورق وعلب فارغة وكتب دراسية قديمة وكراسات ودفاتر البنات .

أه يا قلبي المفطور! دقاتك المتصارعة كوخزات سكين حاد تمزقني عقابا على نسيانى شيئا بتلك الأهمية .. أين هى كراسة غادة ؟! صرت أبحث في القمامة كقطة تبحث عن ضالتها.. أبعثر الأوراق يمينا وشمالا حتى عثرت عليها، ورأيت كراسات أخرى أعرفها من لونها وازددت يقينا حين رأيت اسم زينة يتوجهم، لملمتهم مسرعة من أمام الباب وكأنني أللم عمري الضائع وأسرعت بداخل شقتي مغلقة بابي بإحكام .

أهكـذا هـى الحيـاة ياصديقـتي الغائبـة الحاضـرة ؟ فـراق الأحبـة ولوعـة الاشـتياق وللمـة الذكريـات الباقيـة، لكنـى لا أتصـور البقـاء هنـا دونـك، فقـد كنـت لـي جميـع الأشـياء تحـت قبـة تلـك السـماء التـى اختطفتـك مـني و جميـع الأماكـن كانـت أنـتِ .. لابـد مـن رحيلنـا مـن هنـا أيضـاً..

كنـتُ ألحُ علـى زوجـي أن نـترك الشـقة التي لم أعـد أطيقها.. معللـة ذلـك بأنـني أصبحـت وحيـدة وأنهـا أيضـا لم تعـد تليـق بنـا . ولكـن زوجـي كان لا يعـير كلماتـي اهتمامـاً كعادتـه ممـا زاد مـن توتـري وإحساسـي بالوحـدة الشـديدة والألم تذكـرت وجـود كراسـة غـادة وكراسـات زينـة الملونـة بألـوان الشـباب ..هرولـت إليهـا واحتضنتهـا فزالـت آلامـي، جلسـت فـوق الأريكـة الـتي اقتنصتهـا مـن بقايـا أثـاث قديـم لشـقة جـار لنـا بالعمـارة تخلـص يومـا مـن بعـض الأشـياء ببيعهـا، كنـت أقلـد غـادة فـى أن تكـون لـي أريكـتي المفضلـة، تصفحـت الكراسـات محاولـة أن أشـم عبـق الذكريـات وأن اسـترجع رائحـة غـادة وزينـة، كراسـة التاريـخ، الإنجليـزى، العربـى، الفرنسـاوى .. آه يـا زينـة كـم كان نطقـك للفرنسـية جميـلا، وتلـك كراسـة بـلا عنـوان خارجـى لكـن ذات غـلاف مرسـوم عليـه العروسـة الرائعـة «باربـي» .. بالداخـل وبخـط صغـير جميـل كتـب باللـون الأخضـر عنوانـا رائعـا «مذكرات الجميلـة زينة الشـهيرة بباربي»

يـا اللّه .. مذكراتـك أيتهـا الغاليـة ! ! يالهـا مـن هديـة رائعـة يـا زينـة تهدينهـا لـي في تلـك الأيـام الجافـة! في جنـة الخلـد أيتهـا الجميلـة، رحمـك اللّه يـا صغيرتـي ويـا حبيبـة القلـب .

مـع ازديـاد فـترات غيـاب زوجـي عـن البيـت في الفـترة الأخـيرة ومكوثـي وحيـدة لفـترات طويلـة لا اتكلـم ولا أضحـك ولا أفكـر في شـيء إلا المـوت وكيـف أختطـف منـى حبيباتـى ؟ سـقطت يومـا علـى الأرض في حالـة أعيـاء شـديد وتطلـب الأمـر أن تأتـي أمـي للبقـاء معـي حتـى يتـم شـفائي .

ومـع تواجـد أمـي امتـلأ البيـت بهجـة وكلامـا وزواراً .. فقـد كانـت أمـي تتحـدث طيلـة فـترة الصبـاح مـع كل أفـراد أسـرتنا , مـع خالاتـي وأبنائهـم وبناتهـم ؛ وتخـبر الجميـع بمـا آلـت إليـهِ حالـتي .. وتأتـي الخـالات وبنـات الخـالات، ومنهـن مـن تمكـث حتـى آخـر الليـل ومنهـن مـن تبيـت الليـل عندنـا، وتبـدل الحـال وانتعشـت حياتنـا الأسـرية بعـض الوقـت وبشـفائي عـادت أمـي وموكبهـا العائلـي الدافـىء إلى حياتهـم السـابقة .. وعـادت حياتـى إلى برودتهـا.

إلا أن نهلـة ابنـة خالـتي الصغـيرة ذات الأربعـة والعشـرين عامـا، والـتي لم تلتحـق بـأى عمـل منـذ تخرجهـا، تبرعـت مشـكورة بالحضـور مـن حـين لآخـر للاطمئنان علـىَ، لقـد تقاربنا كثـيرا أثنـاء فـترة مرضـي، حيـث كانـت نهلـة معنـا كل يـوم

ولمدة أسبوعين , ملأت فيهما البيت بهجة بروحها المرحة . وكانت تمكث حتى فترة متأخرة من الليل ويضطر زوجي أن يقوم بتوصيلها حتى نطمئن على عودتها لبيتها سالمة .

نهلة لم تقبل بأى خطيب تقدم لطلب يدها لأن لها مواصفات عاطفية خاصة، فهى ترفض الزواج التقليدي والمسمى بزواج الصالونات وترغب في زيجة تتم عن حب مسبق، هكذا أخبرتنا أثناء تناولنا العشاء ذات يوم ببيتي وكنا جميعا حول مائدة الطعام , وأذكر أن زوجي نهرها على هذا الفكر قائلا إن الزواج شىء والحب شئ آخر، كما علمنا آباؤنا من قبل .

الحب شىء والزواج شئٌ آخر..! كلمة كثيرا ما سمعناها ممن لهم حق النصح والإرشاد، ممن لهم الحنكة والحكمة والنفوذ والسطوة في العائلة، الحب شىء والزواج شيئٌ آخر، ما هذا الهراء ؟ كيف سمحت لهم أنفسهم بمثل هذا الكلام ؟ وكيف قبلت به ضمائرهم رجالا كانوا أم نساء ؟! قالوا لنا مثل هذه التفاهات ولكن بكل الثقة وكأنهم يتلفظون بالحكمة والبيان، هل لأن البشر جميعهم لديهم نفس الافكار التي تدخل عقولنا مع الهواء ورذاذ الماء، وزخات المطر، وذرات التراب، وحكايات الجدات، وأحاديث النساء فوق الأرائك وهن يقلبن فناجين قهوتهن ويثرثرن، وفي نصائح المدرسين بالفصول، وفي استعراض الخبرات ورحلات السفر لأساتذة الجامعات أمام الطلاب .. أفكار قديمة متناقلة موروثة

ليس بها أى جديد أو مثير وكأننا دمى وعرائس ماريونيت نتحرك بالحبال والخيوط! يحركنا أشخاص غيرنا، ويتكلم نيابة عنا أشخاص غيرنا، بينما نحن نتحرك وندور وننظر مشدوهين متسائلين في داخل ذواتنا عما نحن فيه ؟!

إنه الاغتراب يا غادة .. الاغتراب الذي جعلني أصحو من نومي في ليلة صيف لأجد نهلة بين أحضان زوجى بالصالة في قبلة عنيفة محمومة .

(١٤)

الزمان المفقود

لقد تبدل حالي بعد هذا اليوم، لم أعد تلك المرأة الطيبة الهادئة البلهاء، بل أصبحت أكثر غضبا وعنفا مع زوجي ومع نفسي ومع أولادى، أصبحنا نتشاجر ونتخاصم ونتغاضب، كنت أترك البيت إثر كل مشاجرة وأذهب عند أمي .. وحين بدأت أمي فى السأم من تلك الحالة المزرية التي وصلنا لها أنا وزوجي، تركتُ البيت يوما ولم أذهب إليها بل ذهبت إلى حيث الشاليه الخاص بنا بالساحل الشمالى وهناك شعرت بأني في جزيرة منعزلة وأن الزمن مفقود تماماً !

إن في الحياة فسحات تجتازها أرواحنا ولكننا لا نستطيع أن نقيسها بالمقاييس الزمنية الرتيبة التي ابتدعها الإنسان، ليس هنا سواى والبحر. ومذكرات الجميلة زينة .

فى تلك الليلة كنت خائفة من النوم وحدي فى الليل، خرجت إلى الشاطىء وجلست على الكافيه المتلىء بالناس والضحكات .. ولأول مرة في حياتى، طلبت من الجرسون شيشة تفاحة بعد مرور أكثر من ساعتين وأنا جالسة

ممسكة بالشيشة التي لم يعد بها أى نكهة ولا دخان، وجدت من يقول لي مبتسما.. أتركيها خلاص، خلصت . رفعت رأسي فوجدته «هو» ..

الفنان المنقذ الذي استضافنا يوما في الشاليه الخاص به بالقرية «شاليه مازن»، تعمدت النظر إلى عينيه مقلدة غادة وابتسمت، ثم تحولت الابتسامة إلى ضحكة، يرى البعض أن ضحك الإنسان قد تطور كوسيلة لتشكيل العلاقات بين الناس وتوطيدها، بالفعل فالضحك هو أقصر المسافات بين اثنين، فهل كنت أضحك تعبيرا عن الموافقة أم كان الضحك سلوكا نافيا لشعورى بالخوف ؟

وهو.. أكان يضحك رغبة منه في التواصل ؟ أم لأنه اكتسب جولة وأنه انتصر؟ فالضحك أحيانا صيحة نصر وسخرية يطلقها المحارب إذا هزم عدوه . المهم ياغادة أننا أمضينا الليل معا أمام البحر فى حديث مسل جميل .

والتقيته مرة أخرى حين سافر زوجي تاركا إياى وحدي مع ولدىّ في وقت المصيف، التقينا مرات أخرى كنا نتبادل فيها التحية فقط، ثم تحولت التحية إلى كلام ثم جلسات نحكى فيها عن أى شىء، ثم تحولت الكلمات العادية إلى كلمات حب ثم عشق، في جلسة حب بشاليه مازن حيث التقينا بعد سفر زوجته إلى القاهرة للقيام بمهام خاصة بها، أحضر لى مازن كأسا من البار به مشروب شفاف

اللون وسألنى هل تعرفين ما هذا ؟ فأجبته كمن تستعرض معلوماتها قائلة «فودكا» فاستطرد سائلا : هل تحبينها ؟ أجبته نعم فهى مشروب علية القوم .. وهنا ضحك مازن بسخرية ونظر فى عينى بخبث قائلا : أتعرفين أن الفودكا تصنع من الماء الخفيف المأخود من أعالي الأنهار الروسية والينابيع . ثم يتم ترشيحه جيدا، وبعدها يمزج بالكحول إلى أن يصبح الماء شفافا وعديم اللون فاضحك وأنا أقذف بمحتويات الكاس فى جوفى على مضض قائلة نعم لذا لن يتشمم الناس لنا رائحة خمر .

وتثقل رأسى يا غادة ونتبادل القبلات المحمومة التي ما شاهدتها إلا بين زوجي ونهلة ابنة خالتي يوما، يخبرنى «مازن» أنه يريد أن يرانى بالبحر مثلما رآنى أول مرة ! فوقع فى غرامي على الفور، وحين سألته عن هذه المرة ومتى كانت ؟ أخبرنى أنها المرة التى نزعت فيها المايوه عن جسدي وسبحت عارية بالبحر !

— كيف رأيتني يا مازن وقد كانت الدنيا مازلت نائمة ؟

— كنت سهرانا لم أنم، وكنت ممسكا بنظارة معظمة لأرى البحر من بعيد، فرأيت أجمل حورية بالماء .

كان حبي لمازن عنيف يا غادة، ويزيده عنفا رغبتي في الانتقام من زوجي وخيانته لي مع نهلة، ورغبتي في عدم فقد مازن كما فقدت أنت حبيبك ذات يوم .

هأنـذا اخـرج للبحـر عاريـة، تتقاذفنـى الأمـواج و تدغـدغ جسـدي المتطـاوح غضًّـا لدنـاً كغصـن البـان، بينمـا الشـمس تسـتحم في زبـد البحـر الـذي ينعقـد مـن تحـتي زرقـةً. كنـت أبـدو كنقطـة ضـوء بالمـاء بينمـا هـو نقطـة ضـوء أخـرى، خطوتان والتحـم الضـوءان، ويعتـم الأفـق شـيئا فشـيئا يـا غـادة و أنـا كأنـي قـد غشـى علـىّ .

حـين انفصـل الضـوءان طفـا جسـدي فـوق السـطح، حيـث كان ثمـة صمـتُ هائـل يلـف المـكان ومـا مـن صـوت ياغـادة إلا صـوت ارتطـام روحـى غريقـة نحـو القـاع .

ولم يعـد الليـل يعـني الوحـدة بالنسـبة لـي، فقـد اسـتمرت غاراتـه الليليـة بخيـول الشـهوة تركـض فـوق شـعاب الجسـد المتقـد فتمزقـه بحوافرهـا، تقطعـه، تثـير جنونـه . ثـم يهمـد بعـد سـاعات العشـق وكأنـه سـقط مـن عليـين، وتبـدأ نـداءات أخـرى يـا غـادة تسـاءلني مـن أنـت ؟ وكأنهـا أرواح تهيـم حـولى، تتلمسـني، تتشـممني، فأتلفـت حـولى فزعـا، اتقلـب في فراشـى، أهـرع إلى الأبـواب والنوافـذ أفتحهـا كـى أرى تلـك الخيـالات أو أرى النـاس أو العـالم، لكنـى لا أرى شـيئا سـوى ليـل أكثر ظلاما وحلكـة، وأسـأل نفسـي هـل اندثـرت مـن السـماء النجـوم؟ فـلا أسمـع سـوى صـوت الصمـت، حـين تصبـح الحيـاة خطـأ فليـس مـا يعـبر عـن هـذا أفضـل مـن الصمـت، وحـين يتكلـم الصمـت ياغـادة لا يمكنـك أن تنامـي .

الأمـر الآن يـا صديقـتي أصبـح أسـوأ مـن الاكتئـاب، فأنـا وحـدي مهجـورة في الشـوارع المزدحمـة، صـدري لايضيـق بشـيء ولا يتسـع لشـيء، تنتابـني نوبـات ضحـك ونوبـات صـراخ، فأبكـي في هـذا الليـل، اتكـور واتكـوم واتمـدد كنـت أريـد أن أنفـض جسـدي المتلـيء بالشـهوة، فيفيـق بغتـة ثـم يعـود مجـددا لسـيرته الأولى، وأعصـر قلبـى المملـوء بالإثـم فينطـق بخيبـة لا تليـق إلا بـي .

مـا حيلـتي يـا غـادة وليـس لـي مـن عشـيق سـواه، ولا أحـد بعـدك يسـمعني في تلـك المدينـة المشـغولة بنفسـها ؛ بينمـا أنـا أسـير فـوق حبـل مشـدود بـين الإثـم والـبراءة وقـد انقسـمتُ ضـد نفسـى، حتـى ظلـي مـازال يتغافـل عـني !أعلـم أنـني مـا كان يجـب أن أضـع جسـدي تحـت تصـرف أول عابـر بالطريـق ولكـني فعلـت ! كيـف لـي أن الملـم شـتات نفسـي ؟ كيـف أجمع روحـي وجسـدي مـرة أخـرى ؟ الطريـق بـين الـروح والجسـد طويـل جـدا يـا غـادة ومحفـوف بالمشـاق وبالصعـاب وبـالآلام، وأنـا طـوال الوقـت أحـاول أن اسـترجع شـيئا مـا لامـرأة أخـرى فرحـة كان اسمهـا فوفـو، امـرأة كانـت تضحـك للمـاء وتلهـو بكريـات الرمـل، أحـاول أن اسـترجع بعـض الوجـوه .. لكـني لا اتذكـر سـواك، ووجهـا مشـوها لامـرأة عاريـة نائمـة في ليـل صيـف ..هـى أنـا ! وكل شـيء حـولى يـدل علـى العبـث .

وقـررت الانفصـال التـام عـن هـذا الخطـو المشـين، قـررت أن أنهـي هـذا العبـث فطلبـت مـن مـازن أن يتزوجـني بعـد أن أفاتـح زوجـي فـى أمـر الانفصـال فـى أقـرب وقـت . لكـني لم أر مـازن بعـد هـذا اليـوم، لقـد هـرب إلى دولـة أوروبيـة وبصحبتـه زوجتـه .

★★★

(١٥)

ما بين الميلاد والموت

وأفقت على كارثتي الكبيرة والتي لم أحسب لها حسابا، وكأن القدر كان يعد لي مفاجأته المريرة، لقد مات زوجي يا غادة !

في الثانية والأربعين من العمر مات زوجي دونما سبب، تاركا إياى وحدي فى تلك الغابة الموحشة مات بين ذراعي وهو ينظر لي نظرة غريبة وكأنه يلومني ويعاتبني ويغادرني معاقبا لي على فعلتي الرهيبة

لم أصدق أن الموت يدنو مني إلى هذا الحد ! الموت لم يترك أحداً لألقِي عليه بأحمال نفسي و تبعات أفعالي، وأصبحت إنسانا مذعورا يفتقد الأمان . أين كان خافيا كل هذا ؟ أعلم أن ما قبل الميلاد محجوب وما بعد الموت محجوب، ولكني لم أكن أعلم أن بالحياة أيضا غيبا لا تسقط عنه الحجب إلا حين يهم القلب بالإثم ! وعشت هذا العذاب حين احتواني الندم .

وهاهـى تلـك اللحظـة النـادرة الـتي نـرى فيهـا الحقيقـة، فـكل مـا حولنـا يتصـف بالبطـلان والزيـف لـذا علـىً أن أمـوت، كـى أكمـل معـك يـا غـادة طريقـي للنهايـة و يتماثـل مصيرانـا يجـب أن انتحـر مثلمـا فعلـتِ أنـتِ .

كشـأن جميـع المذنبـين كانـت كل حواسـي فـى حالـة خلـط وفوضـى، ولم تكـن كل أشـكال العبـث قديمـه وحديثـه تكفـي لوصـف حالـي مـن احتيـاج لمحبـة وحميميـة شـعرت بنقصهمـا منـذ زمـان طويـل ومـا فعلتـه مـا كان إلا محاولـة لسـد بعـض الفـراغ في تلـك الهـوة .

كنـت كغريـق بحاجـة إلى قـارب نجـاة فيضـل سـعيه ولا يجد إليـه سـبيلا . حتـى رأيته يومـا بجلبابه الأبيض الناصـع وعمامته الملتفـة بعنايـة فـوق رأسـه ولحيتـه الحالكـة السـواد، كانـت عينـاه تشـعان بنـور الهدايـة، حـين حضـرت يومـا مجلسـا يضـم سـكان العمـارة التـى أقطـن بهـا لمناقشـة بعـض الأمـور المتعلقـة بالصيانـة، كانـت هيئتـه مملـؤة هيبـة وقداسـة ورهبـة . وفي حوار صغـير نشـأ بيننـا، شـعرت بأنـني مـن أواخـر قـرن مـاضٍ وهـو مـن أوائـل قـرن جديـد آثـاره تبـدت في وقفتـه الواثقـة وشموخـه، وشـيء مـن الكرامـة والعـزة في حديثـه. كان بسـيطا، لكنـه كان صادقـا وواثقـا مـن نفسـه وهـو يبـدى رأيـه ويحـاول في نفـس الوقـت إقناعنـا بوجهـة نظـره بـأدب وتواضـع، ليـس مثـل مـن يريـدون أن يسـبغوا علـى أنفسـهم قداسـة روحية وعقليـة تلزم كل مـن سـواهم أن يتبعهـم . فقـد كان جارنـا إمامـا لأحـد المسـاجد .

فكـرة الانتحـار كانـت لاتـزال تشـغلني ويمنعـني عنهـا رؤيتي لولـدىَ اللذيـن لم يعـد لهمـا سـواى وشـعوري بالخـوف حـين أتركهـم بـلا معـين . وبـدا لـي أن أطالـب الشـيخ «علـي» بميعـاد لأصارحـه بمـا تعانـي نفسـي مـن آلام ونـدم وكيـف لـي أن أكفـر عـن ذنـبي لكننـى تـرددت .

حـين قـررت الذهـاب حيـث مسـجد الشـيخ علـي، اسـتبدلت ملابسـي الكلاسـيكية بأخـرى ذات صبغـة دينيـة فاخـترت عبـاءة سـوداء أنيقـة وقمـت بتغطيـة شـعرى بطرحـة سـوداء، لكـني قمـت برسـم عينـي بالكحـل الأسـود وهذبـت حاجبـىَ وحددتهمـا بقلـم التحديـد ! فرغـم مابـي مـن نـدم وحـزن إلا أن قلـبي كان لا يـزال مفتونـا .

كان الشـيخ علـي يـؤم المصلـين في صـلاة العصـر وأنـا أتابعـه مـن مشـربية الحريـم في الخلـف سـعيدة بكلماتـه وشـغوفة لسـماع نـبرات صوتـه العـذب بالتـلاوة .

في الختـام أسـرعت بالخـروج حيـث يمكنـني أن التقيـه عنـد بـاب المسـجد وهرعـت إليـه وأنـا ابتسـم وأمـد يـدي إليه بالسـلام وأفاجـأ بـه يرفـض لمـس يـدي معتـذرا بأنـه لا يصافـح النسـاء، فعَلـت نـبرات صوتـي غضبـا لكـني مزجتـه ببعـض التوسـل أن يعطيـني بعضـا مـن وقتـه لأننـي أريـد منـه المشـورة، وأردفـت بـأن الأمـر فـى منتهـى الأهميـة وأنـه مسـألة حيـاة أو مـوت .

بدا الاهتمام على وجه الشيخ علي وقال مستفسرا ما الأمر يا سيدتي ؟ فتلعثمتُ .. وتاهت الفكرة من الأساس .. ثم لملمت شتاتي وقلت بجدية : أريد منك زيارتنا بالبيت يا مولانا، الأمر مهم جدا.

في السابعة من مساء نفس اليوم حضر الشيخ على إلى شقتي وطلبت من ابنى الأكبر أن يقابله ويجلسه في غرفة المكتب الخاصة بزوجي السابق وأن يجلس معه لحين حضوري.

وللمرة الثانية أسحب يدي من أمامه بعد رفضه مصافحتي .. واتذكر حجته فى هذا الشأن فيزيد بى العناد.. إلى ماذا..؟ فى هذا الحين لم أكن أدري .

زجر الشيخ بوتشي التي جرت إليه مرحبة، ونظر إلىَ نظرة عاتبة فأخذت بوتشي لغرفة النوم وأغلقت الباب عليها .

جلس الشيخ علي في أدب أمامي فقد كنت أكبره بعدة سنوات وجلس معنا ابني الكبير، سألته عن أحواله وأحوال أسرته المكونة من زوجته وابنته ذات السبع سنوات . ثم أرسلت ابني لعمل مشروب لنا، بينما بقيت أنا والشيخ علي.. فنظرت له وتنهدت قائلة :

— أنا حزينة وتعبة يا شيخنا .. أنا أموت في اليوم مائة مرة .

– لماذا ؟ خير إنشاء الله !

– لقد ارتكبت معصية كبيرة يا مولانا وأنا الآن في حالة نفسية مزرية

– عليك بالتوبة والمغفرة، والله يقبل التوبة في كل وقت، لكن عليك أيضا بالصلاة .

– لا استطيع يا مولانا .أشعر أن كلي آثام .

– ماذا إذا نويت زيارة بيت الله الحرام والتوبة هناك والاستغفار والصلاة ستريحك وتزيل همومك .

المسجد لدينا يقوم بعمل رحلات عمرة، وقريبا هناك رحلة المولد النبوى الشريف لو أردت وضعت اسمك مع الراغبين بالسفر.

– ضعني على قائمتك يا مولانا أنا على استعداد للسفر في أقرب فرصة .

ثم تناول مشروبه على عجل وانصرف، وبقيت أنا افكر في تلك الرحلة الروحية واشتاق لها .

كنت أذهب كل يوم إلى المسجد حيث يؤم الشيخ علي المصلين .. فأصلي خلفهم وأخرج من المسجد متعمدة أن أراه. كنت أريده أن يعرف أنني امرأة صالحة أؤدي فرائضي، وكنت أرتاح حين يراني .. وأحيانا كنت ألقي عليه السلام أو ألوح له بيدي من بعيد .

ذات يوم وأنا ألقي عليه السلام قال لي استعدي للسفر بعد شهر من الآن، تهللت من الفرحة وشكرته كثيرا وطلبت منه أن يتكرم بزيارتنا حتى أُلمَّ بتفاصيل الرحلة منه وما الذي يتوجب على فعله، فوافَق .

كنت أقابله في صعوده أو هبوطه على سلم العمارة، وأحيانا كنت اتعمد أن أفتح الباب في موعد عودته من الصلاة، كان يلقي علىّ بالتحية وأرد تحيته مصحوبة بابتسامة، وحين حضر للمرة الثانية لمنزلي كان شعوري مختلفا ! كنت أتجمل بالثياب والعطر كامرأة تنتظر عشيقا.

لم ترحني تلك الحالة، خفت من نفسي الضعيفة، خفت من شروري لكني لم أستطع أن أكبح جماح نفسي العطشى دائما للاهتمام والحب

فتحت للشيخ علي الباب بنظرة العاشقة .. وبحركة لا إرادية مددت يدي لأصافحه فإذا به يصافحني بحرارة، تشبثت بيده واندفعت لأرتمي في حضنه بشغف المفتون ! احتضنني بشدة العاشق وتلاقت شفاهنا في جنون .. لم أدر كم مضى من الوقت حين أفقت من غيبوبتى على صوت بوتشي تنبح خلف باب حجرة النوم حيث كان الشيخ «علي» يهم منصرفا .

لم أره بعد ذلك اليوم المشئوم وظللت أبحث عنه فيتهرب من ملاقاتي بكل الحيل والطرق . حتى جاء اليوم الذي التقيت به خارجا من المسجد فهرعت إليه دونما وعي برد فعل الناس من حولي، فما كان منه إلا أن صدني بعنف ودفعني من أمامه فسقطت على أثر الدفعة على الأرض والناس تنظر إلينا في عجب وهو يعدو مهرولا ..بعيدا على مرمى البصر .

أيام وليالٍ لا نوم ولا راحة ..كل ما كان يشغلني هو موقف الشيخ علي العنيف تجاهي، لثاني مرة يخذلني الحب، لثاني مرة تخدعني عواطفي ومشاعري وقلبي الدنس ..

الشعور بالحاجة لصديقة أصبح يفوق الحد . ولا أحد معي ولا صديقة أبوح لها بعذابي . لاشيء معي سوى بقايا من ذكريات لصديقة أحببتها وتركتني على عجل، لكن هناك شيئا قد يخرجني من الوحدة قليلا أين أنت يا مذكرات زينة الحبيبة ..هرعت أبحث عنها بكل الأرفف والأدراج حتى عثرت عليها فاحتضنتها باشتياق العاشق المعذب للقاء، وبدأت القراءة ..

(١٦)

زينة

زينة تتحدث فى مذكراتها البسيطة اللغة عن أمها وأبيها، وعن صديقاتها المقربات وعن أختها و بوتشى والمدرسات والمدرسين الذين تعلمت تحت أيديهم فى المرحلة الثانوية المشئومة التى انتهت بغرقها.

كتبت كثيرا بمذكراتها عن مدرس بعينه وهو مسيو كمال مسجلة اسمه مرة بالعربية ومرات بالانجليزية وبجوار الاسم تضع قلوبا صغيرة ورسومات لأعين وشفاه، لم تسجل زينة أية تواريخ بالمذكرات ربما لأن سنها لم يكن تهمه التواريخ، أو لأن المدة التى قضتها مع مسيو كمال لم تتعد سوى سنة دراسية واحدة ربما كانت هى السنة الأخيرة فى عمرها .

استمر فى القراءة حيث كتبت زينة بخطها الرقيق :

«مسيو كمال أثنى اليوم على قراءتى للفرنسية قال لى أنى أجعل من الكلمات موسيقى» .

صفحة أخرى من مذكرات زينة أقرا بها عبارات مثل :

— «اليوم مسيو كمال نظر لى بالفصل نظرات طويلة ..!»

— «لقد اتفقت مع ماما على إعطائى درسا للغة الفرنسية»

— «مسيو كمال سوف يأتى إلى البيت ليعطينى دروس الفرنسية»

— «اليوم سأذهب أنا لمسيو كمال ليعطينى الدرس مع زميلاتى ببيته ..»

— «غدا سأقابله فى السنيما لمشاهدة القيلم الاجنبى الجديد».

— «فى السينما تشابكت يدانا فى حرارة وقبلنى قبلات كثيرة لدرجة أننا لم نتابع أحداث الفيلم»

حتى وصلت بى القراءة إلى بداية المأساة .. فزينة تسترسل فى حبها وسرد الحكاية حتى وصلت بها إلى أول قبلة بينها وبين مسيو كمال ببيته حيث حضرت له بمفردها حسب اتفاقهما .

وتستمر زينة في الكتابة قائلة : في هذا اليوم حدثت بيني وبين كمال علاقة حميمة في غياب زوجته وطفلها عند والدتها .. وهنا صحت يااللّه ! زينة.. ما هذا ؟ كيف تفعلين هذا ؟ أتابع القراءة في فزع لتأخذني زينة عند «داية» بحى شعبي حيث أشارت عليها صديقاتها بالتخلص من الجنين الذى بدأ شهره الأول، و ترفض الداية إجراء عملية للتخلص من الجنين ولكنها تعرض علي زينة الزواج من ثري عربي !

صفحة أخرى بكراسة زينة كتبت فيها : «داية أخرى ببلدة بعيدة عن القاهرة.. منطقة عشوائية غارقة في الماء والأوحال ومنزل قديم متهالك ترفض هى الأخرى إنزال الجنين وتخبرني أنها لا تقوم بعمليات الإجهاض وأنها يوما رفضت أن تفعل هذا مع فتاة أحضرتها زوجة أخ عشيقها الذى أخطأت معه، وبعد ذلك قامت الفتاة بإلصاق فعلتها برجل آخر متزوج حين ظهرت عليها آثار الحمل وهددتها أسرة الشاب بالقتل لو ذكرت أنه الفاعل، وظل الرجل الآخر في متاهة البحث والتقصي بين أقسام البوليس والنيابة حتى ظهرت الحقيقة فقتلتها أسرتها .

صفحة أخرى لا تختلف عن سابقتيها في المعاناة والعذاب النفسي الذي واجهته زينة منذ أن تورطت في حبها مع مدرسها فكتبت في صفحاتها القليلة التي اتشحت بالسواد ..»

— في هذا اليوم اللعين الداية رفضت طلبي قائلة في تصميم وحزن أن البوليس وجد جثة لفتاة بالحى مقطوع رأسها وملقاة بأحدى المصارف بعد أن اكتشفت عائلتها أنها فرطت في شرفها فقاموا بجلب كل من لها علاقة بالتوليد في كل المناطق التي يوجدن بها وتم استجوابهن بقسم البوليس، ونحن لا نريد التورط في تلك البلاوى لو أنك بحاجة لعملية ترقيع فقط أنا تحت أمرك، أنا أساعد البنات في أن يبدأن حياة جديدة لكن الحوامل ليس لي شأن بهن إنها مسئولية ! في طريق العودة وأنا

أرتعد خوفا وأموت قلقا و تائهة وسط قرى صغيرة لم أسمع بها من قبل، وجدت جثة لفتاة في مثل عمرى محروقة تماما وملقاة بإحدى الخرابات .. صرخت من الرعب لكن إحدى بائعات الخضر بالطريق جذبتني من ذراعي قائلة : لا تخافى إهدئي سألتها عن هذا المسخ المحترق؟ فقالت لي إنها فتاة أو امرأة مجهولة الهوية ربما أخطات مع شاب لأن بطنها كانت منتفخة وتدل على وجود حمل في أكثر من شهر، والمنطقة كلها تعتقد أن أسرتها قتلتها وأحرقوا الجثة ثم ألقوها بالخرابة ! و تستطرد زينة ..

— كيف يكون هذا ؟ لماذا يقتلونها ويلقون بجثتها هكذا وكأنها حيوان ؟ أين الرحمة ؟ أين إكرام الميت ؟ أين كرامة الاسرة في هذا التصرف الشنيع ؟ أليست هى الضحية، لماذا يقتلونها بينما الجاني ينعم بالحياة ويتزوج وينجب !

— إن القلق يشتد بي لابد من حل لهذه الفضيحة التى ستحدث لى حين تبدأ بطنى فى الانتفاخ والأيام تمضى ولا حل للمشكلة

— كمال يرفض أن يتزوجني متعللاً بأنه متزوج ولديه طفل، لابد لي من حل وإلا الفضيحة، إن ذهني مشوش تماما ..»

إلى هنا تنتهي مذكرات زينة حيث لا مجال سوى العتمة والحزن ولأول مرة أرى الحقيقة أمامي دون أن يفسرها لي أحد، دون أن أحتاج لمشورة غادة أو سؤالها.. كيف ماتت زينة وهي تجيد العوم ؟

وحدي أعرف الآن، أن زينة ماتت منتحرة . لكن ظل سؤالا آخر يطن برأسي .. هل قرأت غادة مذكرات أبنتها ؟!

يا غالب يا غالب قدوس قدوس

يا غالب يا غالب سبـوح سبوح

الله الله حى

يا بنت ماما يا أم الغلام يامُ الغــلام والعفو منك

يامُ الغلام واشفي عيانك يامُ الغلام والطبل طبلك

يامُ الغلام والدبح دبحك يامُ الغــلام والكل عندك

يـامُ الغـلام والليلة ليلتك يا عـــاشقـــين النبي

ع النبي صلوا

انا بمدح نبي زين

عدد ما في الحرم صلوا

القول على رجال يا نبي

لاصاموا ولا صلوا

اللهم صلي عليك

حى

أغنية «الزار»

(من تجربتى أنا)

(١٧)

أكذوبة الزار

أهتز وأدور واطيح بأذرعي يمنة ويسرة.. أصرخ وأبكي .. وتقوم المرأة المختصة بتلك الأعمال والمعروفة بكودية الزار بتلطيخ وجوهنا وملابسنا بدماء القرابين .. أرنب، دجاجة، بطة، أى شيء المهم أنها دماء حارة تذبح لخروج الجان من أجساد المغويات أمثالى.

وأدور وأدور في حلقة الزار، أردد كلماتهن المنغومة، فتضع الكودية بإصبعها نقطة دم على جبهتي وترسم وشما على صدري ثم تلطخ أقدامي، وتدخل بيديها حيث تضع الدماء بين فخذي، فتسري قشعريرة في أوصالي وأراها أيضا مرتسمة على وجوه باقي النسوة، وتستمر الكودية في الغناء وسط ظلام ليل دامس لا يقطعه سوى ترتيل التعاويذ والتعزيم ورنين الصاجات والصرخات المتشنجة وضوء خافت لشمعتين هزيلتين حول العروس الخشبية المنتصبة في وسط الحجرة والمزينة بالأقمشة الملونة والتمائم والأحجبة .

ويستمر أتباع الكودية في دق الدفوف ونستمر في الدوران حول العروسة، وتشتعل أعواد البخور، وحين تسرع دقات

الدفوف يترنح الجميع يمينا ويسارا ومع دقاتها وتسقط منا على الأرض من تسقط ..

الزار كان آخر ما لجأت له بمشورة الحاجة نعيمة التي كانت تصلي بجواري فمنذ رأتني مهمومة أبكي بحرارة في صلاة يوم الجمعة حيث لم يعد الشيخ علي يحدثني أو يقابلني ولو صدفة بعد ما حدث بيننا وعلمت أنه انتقل بزوجته إلى حى آخر ومسجد آخر لا أدري عنهما شيئا، وحين قرأت مذكرات زينة لم أعد أطيق نفسي ولا ولدىّ ولا أى شىء حولي، أثناء الصلاة وقفت ولم أقدر على الانحناء مرة أخرى، وظللت على حالى واقفة كتمثال بلا روح حتى سقطتُ على الأرض مغشيا علىً، أوصلتني الحاجة نعيمة وبعض السيدات إلى البيت، وبعد أن قلت لهم أني تعبة منذ فترة طويلة وقد استشرت كل الأطباء فلم يجدوا لي حلاً نصحنني بعمل زار.

ولأن الزار في بيتي لم يكن متاحا، ذهبت حيث توجد الأماكن المتاحة لذلك وهالني كم النساء اللاتي جئن مثلي للخلاص من متاعبهن وإن اختلفت في أسبابها .

عدت بعدالزار منهكة القوى مما استلزم بقائي بالفراش أسبوعا متواصلاً وإبناى المنكوبان بي يقومان على خدمتي ظنا منهما بأننى مريضة جدا

★★★

أيهـا البشر الأتقيــاء
التائهون في هذا العالم

لم هذا التيه من أجل معشوق واحد ؟
ما تبحثون عنه في هذا العالم

ابحثوا عنه في دخائلكم ،
فما أنتم سوى ذلك المعشوق

«جلال الدين الرومى»
من كراسة غادة

(١٨)

التيه

لقد أخطات حين صدقتك يا غادة بأن العالم رجل شره للحب والجمال والفتنة، وإنه قذف به حيث الدنيا بلا نواميس وبلا أسباب !

فكيف أفسر لك العالم يا غادة سوى أنه بالغ الذروة و الانضباط والنظام من أكبر النجوم إلى أدق الذرات، وأنه إذا كان مذكرا فهناك قارات تحتوى هذا العالم في جعبتها ولا يخرج عن نطاقها، والقارات مؤنثة يا غادة .

العالم لا يرانا بل نحن من نراه ونشكله كيفما نريد، وقد شاهدت معك كثيرا وسمعت منك أكثر وأكثر، ورجعت من رحلتى أشد ضلالا وحزنا وحسرة، وإذا بالخيبة تجلس لي في نهاية الطريق وتغمز لي بعين شامتة .

الآن الظلمة من حولى تغشي بصرى وقلبى، فلا أستطيع أن أرى شيئا أو أن أتلمس طريقى نحو أى اتجاه، أريد شمسا تشرق بداخلى، تدفىء أدغالى، تضمد جراحى، أين هى شمس الله ؟

علـيّ أن أبحـث فـى داخـل سـراديب نفسـى وقلبـى عـن ذرة مـن هـذا النـور تعيننـى علـى السـير فـى ضوئهـا إلى ذلـك الصحـو الداخلـى، إلى روحـى، ولـن يتسـنى لى هـذا سـوى باللجـوء لإلـه العـالم مهرولـة، تاركـة خلفـي كل تلـك الفوضـى العارمـة الـتي هـى مـن فعلنـا نحـن كـى تعـود إلىّ نفسـي الـتي ضاعـت في هـذا التيـه .

أيهـا الخائـن الهـارب، يـا أول مـن انتهـك السـلام في سمائـي وفصـم عـرى الإيمـان فيهـا، وفعـل مـا لم يفعلـه أحـد قبلـه، لـن أكتـب علـى نفسـي جحيمـا أبديـا معـك، ملعـون أنـت في سـاعة ملعونـة التقيتـك فيهـا، علـىً أن أبطـل لعنتـك وأن اتحمـل عـن عمـد وزر مـا سـعيت إليـه طائشـة..

أيتهـا اليـد الـتي امتـدت لـي بوجـه إنسـان وقلـب شـيطان ..أيتهـا الغوايـة المسـتترة بعبـاءة الديـن تعسـاً لـك .. أشـيطان أنـت جـاء ليزيـد آلامـى وتعاسـتى وحزنـى، سـأنتصر عليـك وعلـى نفسـي المتلئـة بالغوايـة والشـرور والنـدم .

لا أدري كيـف استسـلمت لنفسـي ولكمـا فعصيـت اللّه فيمـا حـرم تحريمـا صارمـاً..؟ كيـف انتهكـت قداسـة زواجـي وجسـدي يومـا ؟

ساتحمل عذاب الحب والخيانة ولن أقبل تكرارهما أبدا، إنهما شجرة أخطار لمن يتذوق ثمارها، بل وتفتح الطريق لكل الشرور، سأنهي حياتي البائسة لابد وأن تنتهي مأساتي كما انتهت مأساة غادة..

لا أحسب أن الأمر ينتهي عند هذا القدر أو يقف عند هذا الحد، فإنه أكبر من ذلك وأعظم، والمسالة أعقد وأشق، فالإنسان مجبول على الإيمان بالحياة إيمانه بالله، فكيف أخطىء مرتين ؟ إذا كنت تكلفت مالا يجب .. فكيف أضيع ما يجب ؟ إن مغفرة الله هى مايعين على احتمال تلك الحياة ويجلو من وحشتها، ولكن ذلك لا يتهيأ حتى يكون بيني وبينه اتصال .. يارب إذا أذنت لي وتكرمت كدأبك مع التائبين وتعطفت كشأنك مع التائهين، أتيت إليك.

★★★

قد غفرت خطاياها الكثيرة، لأنها أحبت كثيرا.

والذي يغفر له قليل يحب قليلا»

«مغفورة لكِ خطاياكِ»

«الأنجيل»

لوقا ٧-٤٧

من كراسة غادة

(١٩)

الخروج من التيه

لم يعد لدى من صديق سوى بوتشي الجميلة .. كنا نخرج معا نتمشى في الظهيرة في شمس الشتاء، كنت ألحظ ظل بوتشي كبقعة ضوء سوداء صغيرة على الأرض، أما أنا فلا ظل لي.

ذات يوم لم تعد بوتشي قادرة على الحركة، ترقد في مكانها لفترات طويلة منكسة رأسها على الأرض وترفض الطعام، لم يكن هناك بد من أخذها لطبيب بيطري للكشف عليها، أخبرني الطبيب أن بوتشي تعرضت لفيروس خطير يأتي للكلاب والقطط فيدمر الجهاز الهضمي .. وبالفعل عانت بوتشي الكثير من الآلام، وكنت أهرع بها كل يوم حيث عيادة الطبيب لتعليق المحاليل وأخذ الحقن ولمدة أسبوع وبوتشي في هذا العذاب وأنا أعاني معها وأشفق عليها.

وماتت بوتشي في صباح يوم شتوي دافىء .. كانت دموعي متحجرة في عيني حيث آخر ذكرى حية عندي لغادة تنتهي تلك النهاية الحزينة..

لا أدري ما الذي دفعني لاتخاذ قرار مفاجىء بالسفر حيث قبر غادة ؟ ربما أردت التحدث إليها وإبلاغها بالخبر مدافعة عن نفسي بأنني لم أقصر مع بوتشي لكنها الأقدار.. وربما أردت أن ألجأ إلى من أحبهم في هذا المصاب الأليم لنفسي .

في النهاية وجدتني أضع بوتشي في صندوق من الكرتون على الكرسي بجواري، وأقود سيارتي متجهة حيث قبر غادة .

في الطريق انهمرت دموعي ولم أدر أهي دموع الحزن أم الندم أم التطهر ؟ وقفت أمام قبر غادة وكأنني أقف على مشهد من حياتي كلها ،هل هنا دُفِنت غادة أم حياتي السابقة وذكرياتي بحلوها ومرها ؟ ذكريات كانت معها وأخرى كانت من أثرها. شعرت بأن تلك اللحظة ليست لحظة موت .. بل هي لحظة ميلاد لحياتي..

وجاء المسئول عن القبور، وبعد مناقشة بسيطة وضعت في يده مائة جنية مقابل أن ينبش لي حفرة في التراب بجوار قبر غادة تسع بوتشي، موحيةً له بأن تلك كانت وصيتها لي . حين عدت من زيارة قبرها .. كنت قد تخلصت من كل أحمالي السابقة .

لم أدر ما مر من الوقت حتى رأيت نفسى أركب الطائرة وأجلس في مقعدى أنظر حيث الأرض تبتعد شيئا فشيئا، تاركة ورائي لا زمان ولا مكان متجهة حيث بيت الإله الأبدي الأزلي.. وحيث الحب الحقيقي الذي لا يزول .

وقفت ماثلة أمام الكعبة، أنوء بخجل المذنب كمن تنتظر من يُعْلمها أنها قد حظيت بالقبول، كانت الكعبة في صمت سرمدي، والملائكة أظنها كانت أيضا صامتة حزينة لما آل إليه حالي، وشعرت أنني شيطان قد تسلل بالدخول خفية، وأنه ليس لمثلي توبه، ولكن من ذا عساه أن يفلت من عين البصير الخبير، هنا تكلم الرب الأعلى، تكلم من سحابته الخفية داعيا إياى للدخول، فتزاحم حولي الناس وجرفوني معهم حيث الطواف، ووجدتني أطوف حول الكعبة وأطوف وأطوف باكية خاشعة .. كنت أرى الشيخ علي يطوف بالمصلين ويسبح الله ويستغفره ويبكي بدموع غزيرة كانت تبلل لحيته . ورأيت زوجي يطوف معهم، ناديته فلم يسمعني ! ورأيت زينة ابنة غادة، ورأيت غادة أيضا تطوف، كنت أطوف بسرعة لألحق بهم أسرع بالطواف وأسرع حتى بلغ بي الدوار وسقطتُ على الأرض .

حين أفقت من سقطتي، وجدتني في مستشفى قريبا من الحرم، والممرضة تضع يدها فوق رأسي وتمسح جبهتي من العرق المتصبب عليها . تسألني الطبيبة ..

— أأنت الآن بخير؟

— نعم..

ما اسمك كى اكتبه على روشتة الدواء ؟

— ولأول مرة أفكر في اسمى ..! وأنطق به في سكينة ..

— «عفـاف» .

حـين عـدت كنـت كمخلـوق جديـد صُنـع لِتَـوه، ليـس بـه أثـر مـن مـاض مـؤلم أو فعـل مشـين أو أمنيـات خائبـة، مخلـوق لـه كيانـه الخـاص والقـدرة علـى التفكـير والفهـم والتحقـق والتصـرف مـن تلقـاء ذاتـه، كان ظلـي قـد بـدأ في النمـو ..

قمـت ببيـع شـقتي واشـتريت أخـرى بحـي بعيـد في إحـدى المـدن السـكنية الجديـدة، حـى جميـل وهـادىء بعيـد عـن كل صخـب الماضـي، ووضعـت لأولادي مـا تبقـى مـن مـال والدهـم كوديعـة بأحـد البنـوك، كمـا التحقـت بالعمـل فـى مدرسـة بالحـى الـذى نقطنـه كمعلمـة لأطفـال الحضانـة . كان لابـد أن اسـتبدل حياتـي القديمـة بحيـاة أخـرى وأصـير امـرأة جديـدة فغـيرت مـن كل الأشـياء، حلوهـا ومرهـا، ونمـا لى جناحـان أطير بهمـا في خيالـي الجديـد سـابحة بوقـار وثقـة في فضـاء الحـب الإلهـي والمعرفـة والحريـة، ونثـرت بـذور المحبـة لـكل مـن حولـي مـن كائنـات حيـة .

صـار للطيـور والحيوانـات و للعشـب مـكان فـى قلـبي، صـارت المحبـة كنـزي الثمـين الـذى أدخـره لمـن يسـتحق بـدلا مـن أن أنفقـه علـى مـن لا يسـتحقون، وصـار ولـداى كل حياتـي وأحلامـي و الصغـار هـم متعـتي في الحيـاة و أمهاتهـم صديقاتـي، واسـتحالت كل مـن غـادة وزينة إلى كراسـتين حزينتـين وضعتهما بمكتبـتي الصغـيرة بجـوار مجموعـة غـادة القصصيـة الوحيـدة «الطائـر المحلـق» .

وتحققـت تمامـا مـن أنـني أبطلـت تلـك اللعنـة التـى حلـت بـي حـين درت دورة المصـير فـى فلـك غـادة .

إلا أنـني حـين أمـد يـدي لأغلـق جهـاز التليفزيـون ثـم ألقـى بالريمـوت كنـترول بشـموخ علـى الطاولـة، وحـين أرفـع يـدي لتحيـة منـادي السـيارات بالجـراج وأنـا أهـم بالخروج بسـيارتي، أو حـين أذهـب مـع صديقـة لإحـدى الكافيهـات وأراهـا تدخـن الشيشـة التفاحـة فأحكـي لهـا عـن تاريـخ النراجيـل وأحاورهـا بتحـدِ وثقـة..

أضبط نفسي متلبسة بمحاكاتها !!

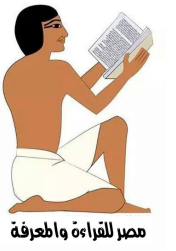

طبع بمؤسسة بسطرون
٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩